

الباب الثالث

حياة أبي تمام وحياة شعره

١ - بلده

وُلِدَ أبو تمام : حبيب بن أوس الطائي "بجاسم" ، يقول ياقوت : "وهو اسم قرية ، بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ ، على يمين الطريق الأعظم إلى "طبرية" ، ويقول صاحب الأغاني : إنها بناحية منبج . ويضع ياقوت مدينة منبج هذه إلى الشمال الأقصى من بلاد الشام ، بحيث يكون بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ . وهذا لا يتفق مع قرب جاسم من دمشق عند ياقوت . فدمشق تقع في قلب البلاد الشامية . وعندى أن تحديد ياقوت أوثق وأصح . وقد تكون ملاحظة الصلة بين أبي تمام ومنبج ، هي التي حملت صاحب الأغاني على جعل جاسم مسقط رأس أبي تمام ، قريبا منها . فالصولي يروي في أخبار أبي تمام "أن جماعة كانوا يتهمونهم (أى أبا تمام) بأنه كان يعيش مع أم البحرى سفاحا" والبحترى مولود فى منبج هذه ، وأملاكه بها ، على حد تعبير ياقوت .

ويذكر أبو تمام فى شعر غزل له منبج فيقول :

أطلال بنيت العاصمى بمنبج غناؤك محظورٌ على الدنف الشجى
أجيبى سؤالى ، وأعيرى إن عرفتِ ، مقامى عن صحبى ، وحق تعزى

وناحية دمشق كما يصفها ياقوت : "جنة الأرض بلا خلاف : حسن عمارة ، ونضارة بقعة ، وكثرة فاكهة ، ونزاهة رقعة ، وكثرة مياه ، ووجود مآرب" .

واشتهرت جاسم بمآذرها ، فيقول شاعر طائى ، هو عدى بن الرقاع العاملى :

وكأنها بين النساء أعارها عينيهِ أهورٌ من جآذر جامم

فى هذه البقعة ولد أبو تمام .

وقد أجمع المؤرخون ، والنسابون ، وأصحاب كتب الأدب ، على أنه من نفس طي صليبة . لم يشذ على هذا الإجماع أحد . إلا أن الصولي في كتابه أخبار أبي تمام ، ذكر عبارة أشار فيها إلى نصرانية أبيه ، ولم يذكر هذه العبارة على أنها رأيه هو — فقد تحدث عن رأيه قبل ذلك حديثا قاطعا ولكنه ذكرها في معرض الحديث عن محاولات أعداء أبي تمام النيل منه ، ووسائلهم في ذلك . وقد ناقشنا هذه العبارة في باب سبق ، فأبنا أن نصرانية أبي تمام لا تتعارض مطلقا مع طائفته ، فإن النصرانية كانت فيهم قبل الإسلام ، وظلت فيهم بعده إلى زمن متأخر عن زمن أبي تمام . وقد أتاح ذكر الصولي في عبارته السابقة كلمة " تدوس " في نسب أبي تمام بدلا من " أوس " لصاحب مادة أبي تمام في دائرة المعارف الإسلامية ، مجالا لإرضاء عصبية خاصة في نفسه . بفعل أبا أبي تمام نصرانيا ، ثم استظهر إمكان رد الكلمة إلى أصل يوناني هو " Theodose " . وتابعه في ذلك بعض الباحثين ^(١) .

٢ - مولده

أقدم ما بين أيدينا من نصوص يؤرخ مولد أبي تمام ووفاته ، ما كتبه الصولي في " أخبار أبي تمام " ، فيروي عن عون بن محمد الكندي أنه قال : " قرأت على أبي تمام شيئا من شعره ، في سنة سبع وعشرين ومائتين ، وسمعتة يقول : مولدى سنة تسعين ومائة " ^(٢) . ثم ينقل رواية أخرى ، عن تمام بن أبي تمام أنه قال : " مولد أبي سنة ثمان وثمانين ومائة " .

(١) قرأت أخيرا في صفحات ألحقت بشرح التبريزي على ديوان أبي تمام (مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٠ أدب ش) ويظهر أن ناخ الخبر نقله عن صفحات قد تأكلت من ناحية ابتداءات السطور ، ولكنه ضم منفزقا في غير اهتمام ، لما بينها من ثغرات ، فبدت خرومها إلا أنه ليس من العرف فهم ما هنالك . قرأت فيها ولم يبين الناخ مرجعه أن أبا تمام كان من بني عدى بن عمرو بن العوث بن طي . ثم قال : " وقيل كان أبوه نصرانيا من أهل جامع فصيحه أبو تمام أوسا " . ويقال إن اسم أبيه كاوس . وفيه يقول أحد بن محمد بن الخنمى :

ولقد طلبت أبا فأعجز وجده حتى انبرى لك كاوس الخمار الأبيات
فلم يثم أبو تمام فقط بأن أباة كان نصرانيا يدعى تدوس ، ولكنه أتهم أيضا بأن أباة كان يدعى كاوس لحذف الكاف . وكاوس اسم فارسي . وأبو تمام هو الذى يقول في صلب الإخشيد .

يا قابضا يد آل كاوس عادلا أتبع يميننا منهم يسار
ولو أتيح هذا النص لأصحاب الظن بأن أبا تمام كان من أصل يوناني لترددوا في الجزم يونانيته ، لما عسى أن يوجد لهذه الدعوى على أبي تمام من فارسية تنافسها . ومثل هذه التهم ، التى لا تقوم إحداها إلا بانتفاء الأخرى ، إذا تعددت كان تعددها سبيلا إلى بهرجتها وعدم قبولها ، في بابها ، وكانت هى نفسها دليلا على ما كان يحاول أصحابها من إثارة الظنون حول نسب أبي تمام ، ودخلت بذلك في باب المهاترات التى لا تقوم بحال سنداء عليها في تصحيح دعوى ، يقوم على تكذيبها كل القول التاريخية المصححة

هذه المؤرخين والنسابين والنقاد . (٢) ورقة ١٣٢

أما ابن خلكان فيضيف إلى هذين التاريخين لمولده ، أنه ولد سنة اثنتين وسبعين ومائة ، واثنين وتسعين ومائة . فيقع ذلك الاضطراب في مولد أبي تمام في عشرين سنة .

ولا يكاد بداخلي الشك في أن ابن خلكان ، يوم كتب هذه الروايات ، كان قد قرأ ما كتب عن حياة أبي تمام ، وما قالوا عن ذكائه ، وموته في سن باكرة ، فلولم يكن عنده احتمال تقوم به الرواية لما ذكرها ، إن لم ينفها . أما اثنان وتسعون فأنا أميل إلى الإغضاء عنها ، لما ينجل إلى من أنها عند من نقل عنهم ابن خلكان ، إنما كانت أثرا من آثار التصحيف أو التشابه في الخط العربي بين سبعين وتسعين ، ولأن ما ينتهي إلى أبي تمام وأبنة خير مما لم ينته إلى أحدهما ، فضلا عن أن الصولى ، — ومعظم النقل عند من كتب عن أبي تمام كان عنه — لم يذكرها .

فيبقى بعد ذلك روايات ثلاث ، وهى سنة ١٧٢ ، وسنة ١٨٨ ، وسنة ١٩٠ ^{الهجرى} ، والأخيرة منها يضعفها الاطلاع على حياة أبي تمام وغزارتها ، وأنها تجعل ابتداء انتقاله من دمشق إلى مصر في سن باكرة ، كما أن هناك قرائن أخرى سأذكرها بعد ، تجعل الباحث يميل إلى جعل مولد أبي تمام متقدما ما أمكن ذلك .



هناك قرائن قد يُستأنس بها في أن أبا تمام قد ولد سنة ١٧٢ . ولكن هذه القرائن ليست بالقاطعة . بل يقابل كلا منها احتمال لا يرتاح باحث معه إلى الاستناد عليها .

وأول ما يجب أن نذكره قبل الكلام على هذه القرائن ، هو أن أبا تمام نزل مصر في حدثه ، وتلقى العلم بمسجدها الجامع ، وظل بها فترة لا تقل عن خمس سنين ، يجعلها هو في قصيدة من قصائده ، لا نعرف أقالما وهو في مصر ، أم قالها بعد خروجه منها ، ومطلعها :

أَصِيبٌ بِحُمَيَّا كَأَسْهَى مَقْتَلِ الْعَدْلِ تَكُنْ عَوْضًا إِنْ عَنَّفُوكَ مِنَ النَّبْلِ ^(١)
ومنها :

أَحْمَسَةُ أَحْوَالٍ مَضَتْ لِمَغِيبِهِ وَشَهْرَانِ ، بَلْ يَوْمَانِ تُكَلُّ مِنَ الشُّكْلِ

و بيت آخر من قصيدة أخرى ، قالها في العراق ، في مدح الحسن بن سهل ، يجب ألا ننساه ، وذلك هو :

سِتُّ وَعَشْرُونَ تَدْعُونِي فَاتَّبِعْهَا إِلَى الْمَشِيبِ وَلَمْ تَظْلِمِ وَلَمْ تُحِبِ ^(٢)

فهو — كما تبين من كلامه — قال هذه القصيدة في العراق للحسن بن سهل وسنة ست وعشرون سنة، فيكون قالها في سنة ١٩٨ أو سنة ٢١٤ للحسن بن سهل في العراق .

فأما أن أبا تمام كان في العراق حول سنة ٢١٤ فذلك لا شك فيه، فقد قتل في تلك السنة محمد ابن حميد الطائي، في أذربيجان في حرب بابك الخرمي، فرثاه أبو تمام بقصائد وصل فيها إلى غاية فنه، ويمكن الإنسان أن يتبع حياة أبي تمام، بعد هذه السنة، في المشرق حتى موته .

أما أنه كان في العراق سنة ١٩٨ يمدح الحسن بن سهل، فذلك ما يستحق منا أن نطيل الوقفة عنده .

(١) وجه الحسن بن سهل في هذه السنة إلى العراق، والياً عليه وعلى غيره، من قبل المأمون. فليس ما يمنع أن يتوجه إليه أبو تمام ليمدحه في تلك السنة . فإذا فرضنا أن أبا تمام كان حقاً بالعراق سنة ١٩٨ كان علينا أن نتلمس هل كان قبل ذلك في مصر أم لم يكن؟ ونتيجة هذا البحث لا تبدو عقيمة تمام العقم، فإننا نجد في سنة ١٩٦ في مصر أحد ممدوحى أبي تمام واليا عليها، وهو المطلب بن عبد الله الخزاعي، وليها من قبل المأمون، ومدائح أبي تمام فيه ليست مذكورة في نسخة الديوان المطبوعة بين أيدينا، ولكن فيها هجاء لأبي تمام فيه، لا يزيد على بيتين، يشير فيهما إلى مدائح له، وهما :

أَوَّلُ عَدْلٍ مِنْكَ فِيمَا أَرَى أَنْكَ لَا تَقْبَلُ قَوْلَ الْكَذِبِ
مَدَحُكُمْ كَذِبًا بِخَازِنَتِي بَخْلًا، لَقَدْ أَنْصَفْتَ يَا مَطْلِبُ

والحكا لا نعرف أ كان مدحه المطلب في مصر، أم كان في غيرها؟ في ذلك الزمن أو بعده؟ فإننا نجد في مصر واليا عليها مرة أخرى، يظل فيها سبعة أشهر، على ما يقول اليعقوبي في تاريخه، وذلك في سنة ١٩٨ وعلى كل حال فالمرتان داخلتان في نطاق فترة السنين الخمس، السابقة لسنة ١٩٨، وهي السنة التي نزل فيها الحسن العراق .

(ب) أضف إلى ما تقدم : أن حدثنا حدث في تاريخ الحسن بن سهل، يجعلنا نرجح أن مدائح أبي تمام فيه كانت قبل سنة ٢٠٣، ففي هذه السنة، يروي لنا الطبري وابن الأثير : أن الحسن قد أصيب بالسوداء إصابة شديدة، حتى أنه وُضِعَ في الحديد، وحُبِسَ، واستخلف المأمون على جنده دينار بن عبد الله — أحد ممدوحى أبي تمام في الديوان . وإن كان الصولي يجعل القصيدة

المقولة فيه فيمن يدعى دينار بن يزيد — واتخذ على وزارته بدلا منه، أحمد بن أبي خالد. ويقول ابن خلكان إن مرة السوداء ثارت عليه، حتى منعه التصرف .

(ج) وفي سنة ١٩٨ أيضا، يقتل الأمين، وتزلزل أرجاء العالم الإسلامي بفتن كانت تلتهمه كالنار؛ فيخرج بكل قطر من استطاع أن يخرج به ... ومن بين الخارجين بأذربيجان، علي بن مرّ، ممدوح أبي تمام وصديقه؛ ولكن لم تلبث أذربيجان أن أعيدت إلى حظيرة الخلافة . ولا شك في أن علي بن مر هذا، كان مغضوبا عليه إذ ذاك من الخليفة . ويظهر أنه رضى عنه بعد ذلك في زمن لا نعرفه . وفي رضا الخليفة عنه يقول أبو تمام^(١) :

كَمْ وَقْعَةٍ لَكَ مَا يَنْفَكُ يَذْكُرُهَا خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي سِرِّ وَفِي عَالِنِ

ويظهر أن الخليفة كان يستخدمه بعد رضاه في إخضاع جماعة بغت بالشام، فيقول أبو تمام :

لَمْ يَبْقَ مِنْ شَجَرِ الْبَغْيِ الَّتِي غُرِسَتْ بِجَانِبِ الشَّامِ مِنْ جَذْمٍ وَلَا قَنْ

ثم يقول له ما يبين عن اتصاله به أيام محنته، وما يليق في الروع شيئا من أنهما متقاربان سنا :

لِي حُرْمَةٌ بِكَ فَاحْفَظْهَا وَجَارِزِهَا يَا حَافِظَ الْعَهْدِ وَالْعَوَادِ يَالْمَنِّ

أولى البرية حقا أن تُراعِيَه عِنْدَ السَّرُورِ الَّذِي آسَاكَ فِي الْحَزَنِ

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَسْهَلُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلُفُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِينِ

ومما يؤكد الحس بتقاربهما في السنّ، كتاب كتبه أبو تمام إليه في غيبته، قال منه :

مَا زِلْتُ بَعْدَكَ يَا أُنْحَى فِي حَمْرَةٍ وَتَلَدُّ حَتَّى أَرَاكَ سَلَامًا

أَقْرَ السَّلَامِ عَلَيْكَ مِنِّي كُلَّمَا جَرَتْ الرِّيحُ فَأَنْشَقَّتْكَ نَسِيمًا^(٢)

وقد كتب إليه ذلك الكتاب لما غاب عنه وشاقه .

هذا التقارب في السنّ، المدرك في كتاب أبي تمام، بينه وبين ثائر بأذربيجان على الخلافة،

يجعلنا لا نظن أن سنّ هذا الثائر يوم ثار، كانت عشر سنين أو تزيد عليها قليلا .

(د) يذكر ابن الأثير، في حوادث سنة مائتين، فتنة بالموصل، وقعت بين بنى أسامة وبنى

تغلب^(٣)، وقد يزيد هذا قوة، ماجاء وسأذكره في ديوان أبي تمام، يقول ابن الأثير: "واقتلوا قتالا

شديدا، فقتل من بنى أسامة جماعة، وأسروهم جماعة، ومن بنى تغلب، وكانوا معهم وصلاح

(١) الديوان ط مصر ١٦٨ (٢) الفريدة ص ٢٥٣ من الديوان .

(٣) في ابن الأثير وتغلب؛ وهو نصيف صحته ما أثبتناه .

الأمر، وسكنت الفتنة“ . ولا يذكر ابن الأثير بعد هذا التاريخ، حتى سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، شيئاً عن فتنة وقعت في الموصل، واشتركت فيها أسامة وتغلب ...

فإذا صح أن هذه الفتنة هي التي يتحدث عنها أبو تمام في قصيدته، التي يمدح بها مالك بن طوق، قوى ماضى به، ورجح وجوده بهذه الناحية نحو سنة ٢٠٠ . أما القصيدة فطلعها :
لو أن دهرًا ردَّ رَجْعَ جوابي أو كَفَّ مِنْ شَأْوِيهِ طَوْلَ عَنَابِي^(١)
وفيها يشير إلى أنه كان شاباً، فيقول :

أَوْ مَا رَأَتْ بُرْدَى مِنْ نَسْجِ الصَّبَا	وَرَأَتْ خِضَابَ اللَّهِ وَهُوَ خِضَابِي
وَرَأَيْتَ قَوْمَكَ وَالْإِسَاءَةَ مِنْهُمْ	جَرَحَى بِظُفْرِ الزَّمَانِ وَفَانِي
هَمْ صَيَّرُوا تِلْكَ الْبُرُوقَ صَوَاعِقَا	فِيهِمْ وَذَاكَ الْعَفْوَ سَوَاطِي
فَأَقْلَ أُسَامَةَ جُرْمَهَا ، وَاصْفَحَ لَهَا	عَنْهُ ، وَهَبَ مَا كَانَ لِلوَهَابِ

وقد يعترض على هذا، بأنه ليس لنا أن نقطع بأن ابن الأثير قد ذكر كل الفتن التي حدثت في تلك الأيام، وليس ما يمنع أن تكرر الفتنة بين جماعتين بعينهما في أزمنة متباعدة، فيأتي ابن الأثير ويذكر واحدة لأهميتها، ويترك الباقي، ثم يأتي أبو تمام فيذكر الأخرى لاتصالها بحدوده، فيلتبس التاريخ بالشعر، بما يثير في الظن أنهما عن حادثة واحدة، وليس ذلك صحيحاً .

فأقول: هذا حق، ولكن ليس فيه ما يقطع بأن هذه القصيدة قيلت في غير هذه الفتنة، فهو احتمال لا أذهب إلى القطع به، وقد يزيد في قوة الاعتراضين، أن أبا تمام يذكر في قصيدة أخرى في مدح مالك أيضاً، تشبهاً يثبت أنه قالها في زمن متأخر . يقول فيها عن بيوت أحبائه :

كَانَتْ لَنَا صِنْمًا نَحْنُو عَلَيْهِ وَلَمْ نَسْجِدْ كَمَا سَجَدَ الْأَفْشِينُ لِلصَّخِمِ

وثبات جرم الأفشين إنما كان سنة ٢٢٥، وموته كان سنة ٢٢٦ . ولكن هذا لا يمنع أيضاً أن يكون أبو تمام اتصل به مرتين، مرة نحو سنة ٢٠٠، ومرة أخرى نحو سنة ٢٢٦ .

(هـ) ما كاد الأمين يقتل في بغداد سنة ١٩٨ هجرية، وينتصر الفرس ومعهم المأمون، حتى أهتر العالم الإسلامي هزة مروعة، فإذا بالثورات تتناول من أقصاء إلى أقصاء، لأن قتل الخليفة وأنهار هذا الصرح الضخم، من المعاني الدينية والقدسية، التي نسجها العباسيون حول الخلافة، في الدعوة لأنفسهم، كان شديد الوقع في النفس . ولم يلبث أن زاد الطين بلة تسلط الفرس على

الخليفة المأمون ، فبدأ العرب ، حتى من كان منهم مع المأمون ، يشعرون بانسياقهم التدريجي إلى دولة يخلص فيها السلطان للفرس . وإن يعقوبى ليصور لنا تلك المرارة التي كانت في نفوس العرب ، وما كانوا يحسونه من خذلان فيما يعتقدون أنه حق لهم ، في قصة شخص هَرثمة بن أعين ، القائد العربي ، على المأمون ، وهو القائد الذي ذل له ملكه ، وكان الفضل بن سهل يحس خطورته ، فأوقع بينه وبين المأمون . قال يعقوبى :

” وشخص هَرثمة إلى المأمون ، فدخل عليه في محفة ، وكلمه بكلام غليظ ، ودخل معه يحيى بن عامر بن إسماعيل الحارثي ، فقال : السلام عليك يا أمير الكافرين . فأخذته السيوف في مجلس المأمون ، حتى قتل . فقال هَرثمة : قدّمت هذه المجوس على أوليائك وأنصارك . فأمر المأمون بسحب رجل هَرثمة وحبسه ، فأقام في محبسه ثلاثة أيام ومات ^(١) .

وإن الإنسان ليحس مبالغ ما بنفس هذين الرجلين العظيمين من عطاء العرب ، حتى دفع بهم إلى هذه الجراءة على الخليفة ، بحضرة من يوجهون إليهم هذا السباب ، وساقهم إلى آستهانة بالموت . وما كان المأمون يومئذ إلا صديعة من سماء هذان بالكافرين والمجوس ، وما كان يشعر بقوة وساطانه يومئذ إلا بهم ، بل لقد كان كما كان يراه أهل عصره سجينهم ؛ فلم يكن يعمل عملاً إلا ما يرون .

فلما مات الأمين ثارت الأرض واضطربت ، فما من يوم إلا وخارجى يطفو ، ومذهب ينبو ، ومذهب يخفت ، ولكن أعلاها صوتاً كانت دعوة العلويين . فقد استولوا — على ما في يعقوبى — في غير توحيد لحركتهم — على البصرة ، والكوفة ، وواسط ، واليمن .

وتغلب غيرهم من العرب على الحجاز ، ونصيبين ، والموصل ، وإرمينية ، وأذربيجان ، والجليل . ولهذا ماله من مغزى . كما أن في ذلك الالتفات والجنوح إلى أولئك الذين قام على أيدي أجدادهم من قبل سلطان العرب وبأسهم ، استجابةً واضحة لتلك الدواعي النفسية والتاريخية ، التي كانت تحكم الخصومة بين الفرس والعرب وتوجهها .

وكان الفرس قوما يميلون ، بعد التدين ، إلى ملكية ترتكز على سند ديني ، ونظام مطرد ، يضع نمطها فيما يشبه الوراثة ويحددها . فلم يجدوا ما يتجهون إليه بعد الإسلام إلا خلافة علوية ، تمت إلى صاحب الدعوة بأقرب الأسباب ، فاتجه نظرهم إلى عليّ أول الأمر . فلما انتهى الأمر بخسارته المعركة ، اتجهوا إلى العباسيين ؛ حتى إذا استقر هؤلاء السلطان أخذوا يحنون إلى ميلهم العلوى الأول .

و بذلك اجتمع للعدوين من المسلمين — الفرس والعرب — وجهة واحدة ، وغاية تكاد تنفق ، وإن اختلفت الدوافع ، واصطدم ما يحفز هذا بما يحفز ذاك .

فلم يكن أسرع من المأمون إلى الاستجابة لهذا سياسةً ودهاءً . وكان قد مضى عليه تحت جناح الفرس سنين ، أحس فيها باختناق سلطانه ، وتضاؤل صَوْلته ، فأراد أن يستجيب للفرس إرضاءً ومداراةً ، حتى تنهيا فرصة الخلاص منهم ، وتسكيناً لثورة النافرين من الأقاليم العربية — فاختار في سنة ٢٠١ ولياً لعهدده على بن موسى الرضا ، وأمر جنده بطرح السواد ، ولبس الحضرة ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

ولكن الأمر لم يكن عند العرب في القشور ، وإنما كان في الأصول ، فإذا ضرام الثورة يعم ، وإذا الفتنة تنال بغداد نفسها ، وإذا هو ينحلع عن ملكه هناك ، ويبايع بالخلافة عمه إبراهيم المهدي ، لأن القوم لا يطلبون الخلاص فيها من العباسيين ، وإنما هم يطلبون خلاص العباسيين من سلطان المجوس . وتجري الدماء جرياً تَجْفُ من هوله القلوب بين الضلوع ، وتشور الناس بما يشبه الحشر ، فلم تكن تلك الأمة الهائلة التي آجتاحت العالم منذ قرن وبعض قرن ، بالتي تحطم هذا الانحطام السريع ، تحت أولى الضربات التي توجه إليها . كل هذا والمأمون لا يعلم من أمر الناس شيئاً ، فهو كما يعرفون عنه حبيس في قفص من ذهب ، يأتيه الفرس بالحلب الذي يشاءون . حتى إذا أبلغه ولي عهدده ما هنالك لم يصدق ، فهو يطلب شهوداً ، وإذا هم لا يشهدون حتى ينيلهم أماناً من الفضل ابن سهل وزيره الفارسي ، فإذا أمنهم قالوا .

ويدرك الخليفة ما هنالك ، فإذا هو يدبر للخروج إلى العراق وإلى بغداد عاصمة أجداده ، وقلب ملكه ، وإن قلبه ليخفق بين الإشفاق والطرب ، وإنه ليتمهل في طريقه ، فإذا سمع أن الفضل قد أخذ من شهدوا أمامه ، فضر بهم ، وحبس بعضهم قال : دعوني فإني أداري .

وبينا هو في الطريق يموت الفضل بن سهل في حمامه ، قتلاً بيد جماعة من عبيده ، ويؤتي بهم ليحاكوا أمام المأمون ، فيقولون له : إنك أمرتنا بقتله . ولكنه يأمر بهم فيقتلون ، ويرسل برءوسهم إلى الحسن بن سهل أخى الفضل ، ومعها رسالة بأكية .

ويخلص الخليفة من أهول مستبد عرفته الخلافة الإسلامية حتى عهدده . ثم هو لا يكاد يصل إلى طوس حتى يموت على بن موسى الرضا ، في قول بعض ، مسموماً . وإن دهاء المأمون ليلمح حين يقرأ الإنسان قول يعقوبى : ” وأظهر المأمون عليه جزعاً عظيماً . فحدثني أبو الحسن بن أبي عباد قال :

رأيت المأمون يمشي في جنازة الرضا حاسرا، في مُبْطَنة بيضاء، وهو بين قائمتي النعش يقول : إلى من أروح بعدك يا أبا الحسن ؟ ! وأقام عند قبره ثلاثة أيام ، يؤتى في كل يوم برغيف وملح فياكله . ثم انصرف في اليوم الرابع . وكان موت الرضا في سنة ٢٠٣ هـ .

في هذه الفترة — بعد ما بينت من أشياء تلمح فيها علاقة أبي تمام بجمادات المشرق — يستطيع الانسان أن يضع من قصائده قصيدة قالها في آل علي :

أَطْيِئَةَ حَيْثُ أَسْتَنْتِ الْكُتُبَ الْعُفْرُ رَوَيْدِكَ لَا يَغْتَالُكَ الْاُيُومُ وَالزَّجَرُ

في هذه الفترة، حيث الميل عند العرب واضح نحو العلويين، وحيث هو يفوقه عند الفرس، كما أن ظاهر تحرك الخلافة وميلها إلى جانبهم أيضا، في هذه الفترة أستطيع أن أضع قصيدة أبي تمام تلك حتى يعبر بذلك عن حس نفسي يجيش في صدر أمته، وحتى يضرب ضربة شاب ناشيء، يريد أن ينال الشهرة والجاه باسترضاء الخليفة والفرس جميعا . فضلا عن أن وضع القصيدة في هذه الفترة، لا يدع محلا للعجب من تعصبه للعباسيين الواضح في شعره بعد هذا الزمن، كقوله من قصيدة يمدح فيها أحمد بن المعتصم .

فَالْأَرْضُ مَعْرُوفُ السَّمَاءِ قَرَى لَهَا وَبَنُو الرِّجَاءِ لَهْمُ بَنُو الْعَبَّاسِ
الْقَوْمُ ظِلُّ اللَّهِ أَسْكَنَ دِينَهُ فِيهِمْ ، وَهُمْ جَبَلُ الْمُلُوكِ الرَّاسِ
فِي كُلِّ جَوْهَرَةٍ فِرْدَوْسٌ مُشْرِقٌ وَهُمْ الْفِرْدَوْسُ لِهَذُلَاءِ النَّاسِ

فهو في الأولى إنما كان يمدح العلويين، لظنه أن ذلك يرضى العباسيين .

كما أن هناك شيئا في هذه القصيدة، فالناظر فيها من الناحية الفنية مضطر أن يضعها في أول شعره من حيث الزمن، وذلك لما فيها من ألفاظ غريبة كثيرة، وصور تميل إلى الفن الجاهل . ففيها التشبيه الطويل، وهو ما يندر في شعر أبي تمام . وفيها بيت لا إخاله صادقا فيه بالتحديد، ولكنه دليل واضح على أنه قالها وهو شاب، فهو يقول :

وَإِنَّ الَّذِي أَحْذَانِي الشَّيْبَ لِلَّذِي رَأَيْتُ وَلَمْ تَكُنْ لِي السَّبْعُ وَالْعَشْرُ

فهو يقول إنه قالها وسنه أقل من سبع عشرة سنة . وهو مالا يصدق معه فرض أنه قالها في العراق، وفي هذه الظروف التاريخية التي ذكرتها . فإذا جعلنا مولده سنة ١٨٨، على الرواية الثانية، كان كأنه قال هذه القصيدة سنة ٢٠٥، أي بعد موت موسى الرضا — إن صدقناه في تحديده سنه فيها —

وبعد أن كان المأمون ترك لباس الخضر ، ونزع عن الدولة شعارها العلوي سنة ٢٠٥ ، وهو فرض مرجوح وإن لم يكن مستحيلا .

هذه شبه وجدتها ، نتعاون جميعا على تقرير احتمال وجود أبي تمام بين سنة ١٩٨ وسنة ٢٠٣ ، يضطرب في العراق وأرجاء المشرق .

وهناك خبر آخر أرجأته ، ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ، وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق . ومقتضاه : أن أبا تمام اجتمع ببغداد في جامعها ، يدعبل وأبي الشيص وابن أبي قتن ، وكانوا يجتمعون فيه بعد صلاة الجمعة ، فيتناشدون الأشعار ، والناس يستمعون لهم . قال علي بن الجهم ، وهو راوي القصة ، وكان معهم : ” أبصرت شابا في أخريات الناس ، جالسا في زى الأعراب ، فلما قطعنا الإنشاد قال لنا : قد سمعت إنشادكم منذ اليوم ، فاسمعوا إنشادي ” . ثم أخذ في إنشاد قصائده ، إحداها في المعتصم ، ومنها البيت :

بالقائم الثامن المستخاف اعتدلت قواعد الملك ممدا لها الطول

وغير هذه واحدة في المأمون ، وواحدة في محمد بن حسان الضبي . ولكن هذا لا يصح تاريخا ، ذلك أن أبا الشيص مات ، على ما يقول صاحب النجوم الزاهرة ، سنة ١٩٦ ، وأبو تمام يتحدث عن المعتصم الخليفة الثامن من بني العباس ، والمعتصم لم يكن خليفة إلا بعد موت المأمون ، وقد كان ذلك سنة ٢١٨ . كما أن الصولي يقول قولاً يدل على أن أبا تمام لم يتصل بالمعتصم إلا في فتح عمورية . فمن المستحيل أن تناقش قبل سنة ١٩٦ قصيدة قيات سنة ٢١٨ ، كما أن ما أعرفه عن صلته المحققة بالمأمون لم تكن إلا حول سنة ٢١٧ . فلما أن القصة موضوعة ، وإما أنها زيد عليها ، وإما أنها أخطئ في رواية أسماء أصحابها . ولقد رأيت ابن نباتة في شرح العيون ، يجعل أبا الشيص ابن أبي الشيص ، ولكنه لا يثبت أن يخطئ في صلب القصة ، فيضع أبا الشيص ثانية .



وخبر آخر ، هو أن أول شارح للحماسة هو محمد بن آدم الهروي ، ذكر ذلك صاحب ” كشف الظنون ” ، وذكر أنه مات سنة ٢١٢ ، وذكر فريتغ في هامش مقدمة لطبعة ” الحماسة ” الأوربية ، أنه مات سنة ٢٠٢ وكتبها بالحروف . ولا أعرف من أين أتى بهذا التاريخ ، فإني لم أجد لهذا الهروي شارح الحماسة ذكرا إلا في كشف الظنون ، وتاريخ موته فيه كما ذكرت . وهذا الشرح الباكر . كتاب أبي تمام في حياته ، غريب يرجح معه — لو صح — أنه ولد سنة ١٧٢ وليس بعدها . ولكن

المسعودى يصرح في كتابه مروج الذهب، أنه : " قد كان أبو تمام ألف كتابا ، وسماه الحماسة ، وفي الناس من يسميه كتاب " الحَيَّة " ، انتخب فيه شعر الناس ، ظهر بعد وفاته " .

ونص المسعودى صريح في أن الحماسة ظهر بعد موت أبي تمام ، وليس في حياته . كما أن في التواريخ التي يذكرها صاحب كشف الظنون اضطرابا لا يدع في النفس اطمئنانا إليها ، فضلا عن أن تاريخ موت الهروي هذا ، يختلف في الطبعة الأوروبية عنه في طبعة بلاق المصرية ، فهو في الأخيرة سنة أربع عشرة ومائتين ، يكتبها بالأرقام ، ثم تلو الأرقام الحروف .

وهناك قصة لم يذكرها الصولي في أخبار أبي تمام ، وذكرت في مقدمة ديوانه الذي استحضرتة الجامعة المصرية حديثا من مكتبة الإسكوريال . ومضمونها أن أبا تمام مرّ بالبصرة مرة ، فرأى طفلا تبلغ سنه الخمس ، ثم مر بها ثانية ، فرآه وقد بلغت سنه الثلاثين ، فكان بين مروريه بالبصرة نمسا وعشرين سنة ؛ فلو فرضنا أنه مر بها آخر أيامه ، أى في سنة ٢٣٢ أو سنة ٢٣١ لكان أول مرور له بها سنة ٢٠٧ أو سنة ٢٠٦ ؛ فلو أنه كان مواردا سنة ١٨٨ ، لكانت سنه يومئذ تسع عشرة سنة أو ثمانى عشرة سنة . ولو ذهبنا في الظن إلى أنه ترك مصر هذه السنة وهو قد بقى في مصر على أقل تقدير خمس سنين ، لكانت سنه يوم نزل مصر أربع عشرة سنة ، أو ثلاث عشرة سنة . وهو ما ليس مستحيلا ، ولكنه بعيد شيئا . كما أن تاريخه في مصر ، وعمله ، واتصاله بمن اتصل بهم فيها ومدحهم ، لا يتناسب مع هذه السنّ الباكرة . هذا إن صحت القصة ؛ فإن الفتى الذي قابله أبو تمام في البصرة - على ما يظهر من مقارنة القصة بغيرها في كتب أخرى - هو عبد الصمد ابن المعتدل ، وهو خصم من خصوم أبي تمام ، تصوره القصة في منتهى التوقد والذكاء ، وتصور أبا تمام بصورة المنهزم أمامه طفلا وشابا ، تاركا له البصرة ، إذ هذه حال أطفالها ، فكيف برجالها . فليس يبعد أن يكون خصومه قد حاكوها نكايته به ؛ وأغرب ما فيها أنها مروية على لسان أبي تمام نفسه .



يقوى هذا كله ما يلاحظ من أن ممدوح أبي تمام في مصر ، وهو عياش بن لبيعة الحضرمي ، ليس له ذكر في تاريخ مصر إلا في سنة ٢٠١ ، لما ولي الشرطة لوالها سليمان بن غالب . ولما صُرف سليمان في هذه السنة عن إمرة مصر ، وتولاها السري بن الحكم لثاني مرة ، جعل غير عياش على

شرطته . بعد هذا تسكت كتب التاريخ سكوتا تاما عن ذكر عياش هذا^(١) . ولكن ديوان أبي تمام ينبئ أنه مات ، وأن أبا تمام هجاه بعد موته ، كما هجاه في حياته . وأغلب ظنى أن أبا تمام اتصل به في ولايته الشرطة لا بعدها ، وفي شعره ما يشعر أنه كان كذلك أيام اتصال أبي تمام به ، يقول :

يَهْوُلُكَ أَنْ تَلْقَاهُ صَدْرًا لِمُحْفِلٍ وَتَحْرَا لِأَعْدَاءٍ وَقَلْبًا لِمَوْكِبِ

وآخر اتصل به أبو تمام اتصالا لا نعرف مكانه ، وهو المطلب بن عبد الله الخزاعي . وقد كان والى مصر ، مرة سنة ١٩٦ من قبل الأمين ، وثانية سنة ١٩٨ من قبل المأمون ، وثالثة سنة ١٩٩ بعد أن ثار أهل مصر ، وأخرجوا المطلب من السجن ، وكان فيه بأمر الخليفة منذ عزل سنة ١٩٨ ، فاضطر الخليفة إلى قبوله ، حتى شنت قدمه في العراق بقتل الأمين ، فأرسل إلى مصر واليا جديدا ومعه جيش ، فقاتله المطلب ، ولكنه هُزِمَ وهرب إلى مكة في سنة مائتين ، وكان هذا آخر عهد المطلب بمصر . يظهر بعد ذلك المطلب في العراق مع المأمون تارة ، ومع إبراهيم بن المهدي أخرى ، في أحداث سنة ٢٠١ ، ثم مع المأمون ثالثة ، حتى يسجنه إبراهيم بن المهدي ، ثم يخلى سبيله ، وذلك سنة ٢٠٣ في ذى الحجة . وبعد ذلك يختفى هو الآخر من التاريخ ، فلا نجد له ذكرا .

وقرب ولاية عياش بن لهيعة الحضرمي الشرطة ، من ولاية المطلب مصر في الزمن ، يجهلى أرجح أن أبا تمام شهد مصر في ولاية المطلب لها ، فدحه مدائح لم يذكرها ديوانه ، ولكن ذكر لنا بيتين أشرت إليهما ، فيهما ما يدل على أنه مدحه كما مدح في تلك الأيام أيضا عياش بن لهيعة الحضرمي .



وتحقيق حياة أبي تمام لا يتأتى إلا من قبل مقارنة شعره بأحداث التاريخ ، ولكن هذا الشعر لم يأتنا كاملا ، فدائحه في المطلب ليست بين أيدينا ، وصلته به لا تتضح أى اتضاح في ديوانه . وكذلك الجلودى الذى يهجوّه دون أن نعرف سبب هجائه .

وهناك ما يساعد على الظن أن أبا تمام كان يعمد إلى بعض شعره فيثبته ، ولا يثبت بعضه الآخر ، ويرى ذلك واضحا في العجالة التى ختمت بها نسخة ديوانه ، المستحضرة حديثا من مكتبة الأسكوريال ، فإن بعضها منقول عن قراطيس كتبها أبو تمام بنفسه ، وحملها القالى معه إلى الأندلس ، وأكملها

(١) قرأت أخيرا في صفحات ملحقة بشرح الزهرى على ديوان أبي تمام عن هذا ، أن أبا تمام أقام عند عياش مدة يستطيعه ويستزده ، فلم يزل منه خيرا . ومات عياش ، فرحل أبو تمام عن مصر إلى الشام ، فدح بها أبا المغيث . وهذا يؤيد ما ذهبت إليه . (مخطوطة بدار الكتب المصرية . ٥٠ أدب ش) .

نسخها من كتابات أخرى للقالى ، ومن رواية الصولى لديوان أبي تمام . وفارئ شعره لا يلبث طويلا حتى يعرف أن كثيرا من شعره ، وخاصة ما قاله فى أوائل اشتغاله بالشعر ، ليس مذكورا فى ديوانه . ولو تهيا لنا شعره كاملا ، لوجدنا فيه فائدة لا أشك فى قيمتها ، فى تحديد كثير من خطواته ظل غامضا .

ويظهر أن أسلوب ذلك العصر كان يميل إلى شئ من التظاهر بصغر السن ، وأن أنصار أبي تمام كانوا يروجون ذلك عنه تعظيما لشانه . وفى شعر أبي تمام نفسه ما يثبت أن الحديث عن السن والشيب ، لم يكن حديثا يقصد فيه إلى الحق ، وإنما كان تقليدا من التقاليد الشعرية ، أشبه شئ بالحديث عن الديار والأمكنة وذكر أسمائها . فهو يقول فى قصيدته التى يمدح فيها آل النبي :

وإن الذى أخذانى الشيبَ للذى رأيتُ ولمْ تكملْ لى السبعِ والعشرُ

فكان الشيب أصابه قبل أن يبلغ السابعة عشرة . ويقول فى أخرى فى مالك بن طوق :

أو ما رأيتُ بُردى من نسج الصبا ورأت خضاب الله وهو خضابى

والواضح فى تاريخه أنه لم يتصل بمالك هذا فى العراق قبل أن تبلغ سنه السابعة عشرة ، سواء كانت ولادته سنة ١٧٢ أو سنة ١٨٨ . وعندى أن ذكر الشيب ، وصغر السن واجتماعهما معا ، كان من قبيل الغزل ، وذكر الصدود ، وآداء الحب والوله ، جريا وراء التقليد الشعرى العربى ، من أستفتاح القصائد بالغزل ، ومحاولته تصوير الحب والتهويل فى أمره ، مع أنه لا يكون شئ من ذلك وقع أصلا . ولست أمتنع أن يكون صدق فى بعضها ، ولكننا لا يمكن أن نصحح له من ذلك إلا ما اتفق مع التاريخ المعروف الموثوق به . وإن فى تكذيب الصولى لما اختص بذكر سن أبي تمام فى قصته مع الكندى ، مجلس أحمد بن المعتصم ، ما يلقى نورا كثيرا على نوع القصص التى كان أنصار أبي تمام يشيعونها حوله .

ولست أول من شك فى قصة موت أبي تمام شابا ، فقد شك فيها قبل ابن خلكان ، فعلق على قولهم عنه : "إنه مات وقد نيف على الثلاثين سنة" بقوله : "وهذا يخالف ما سياتى من تاريخ مولده ووفاته" . ثم يذكر بعد ذلك سن مولده ، على اختلاف الروايات ، كما بينت سابقا ، وبينها ولادته سنة ١٧٢ ، ووفاته سنة ٢٣٢ ، بفعل بذلك سنه ستين عاما فى قول .



إن الفترة السابقة لسنة ٢١١ من حياة أبي تمام غامضة، لا يكاد يتبين فيها الإنسان شيئاً تبيناً جلياً واضحاً، إلا من قبيل تصيّد الأحداث تصيّداً، مع تعرّض كل خطوة من خطواته لاحتمالات كثيرة. أما وضع اليد على نص صريح قاطع يؤيد ولادته سنة ١٧٢ أو سنة ١٨٨ فليس الآن ممكناً. غير أنني أكثر ميلاً، بعد كل ما ذكرت، إلى جعل ميلاده سنة ١٧٢. فإن هذا الفرض يحلو كثيراً من الغموض، الذي يعرّو كثيراً من شعر أبي تمام.

فإذا تهيأ لك مثل هذا الميل الذي تهيأ لي، كان من السهل اعتماداً على ما سبق ذكره، أن تتبع خطواته على طريق رُبّما لا يكون أغلظ كثيراً من سلك لاعب مخاطر.

فنعول إنه ولد سنة ١٧٢، وكان بمصر حول سنة ١٩٥، حيث يغلب سلطان طيبي، فيكون على ولايتها جابر بن الأشعث الطائي، وعلى شرطتها طائي أيضاً. وحيث يكون الوالي سنة ١٩٦ المطلب بن عبدالله الخزاعي أول مرة، ثم سنة ١٧٨ ثاني مرة، وهو ممدوح أبي تمام. وحيث يتصل أبو تمام أيضاً بعبّاش بن لهيعة الحضرمي، الذي تولى الشرطة بعد ذلك سنة ٢٠١، ثم اختفى من التاريخ، ولكن أبا تمام اتصل به قبل ذلك. وهو يترك مصر إلى الشام سنة ١٩٨ هـ، فيلبث بعضها في دمشق يمدح أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي. ولكنه لا ينال منه كثيراً فيهجوه، وينحدر إلى الرقة، حيث محمد بن حسان الضبي، ثم يتركه إلى أذريجان حيث علي بن مرّة، فيصادقه أبو تمام، ثم يتركه بعد ذلك إلى كور الفرات، فيكون هناك سنة ٢٠٠ يمدح مالك بن طوق، ويتحدث عما بين أحياء تغلب من خلاف. وفي خلال ذلك أو قبله يكون الحسن بن سهل عاملاً في إخضاع العراق للأمويين، فيمدحه أبو تمام ولكنه لا ينال منه كثيراً، أو أن مدحه له يقطعه بغاة جنون الحسن ابن سهل سنة ٢٠٣ ووضعه في الحديد، فيأخذ في مدح من ولي أمر الجند بعده: جعفر بن دينار (على ما هو مكتوب في الديوان). بعد ذلك تأتي فترة غامضة من حياة أبي تمام، يمكن أن نضع فيها قصيدته في آل بيت النبي. يظل هذا الغموض مخيماً حتى سنة ٢١١، فينتشع عن أبي تمام في مصر ثانية يمدح عبد الله بن طاهر في مقدمه إليها، لإخضاع ثورة السريّ بن الحكم. وليس في التاريخ ذكر لمقدم أبي تمام مصر مرة ثانية، ولكن ليس فيه أيضاً ما ينقض ذلك. ومتى كان في التاريخ عناية بتاريخ أبي تمام أو وضوح؟

في فترة الانقطاع هذه يمكن أن نضع قصائد لايبين في تاريخ أبي تمام متى وضعت ، كالتقصيدة في أبي عبد الله حفص بن عمر الأزدي من خراسان . ويمكن أيضا أن نقول إنه صنف فيها مختاراته الكثيرة ، وأشهرها الحماسة . فيكون أبو تمام في ذلك قد أتجه إلى ناحية العلم .

بعد سنة ٢١٠ تستقيم حياة أبي تمام وتنضح حتى آخر أيامه ، كما سنرى .

وإن لم يتهيا لك هذا الميل ، فلست ألزمك إياه . وما تحدثت عنه هنا إلا أمانة للتاريخ ، عليه يبدى يوما صفحته فلا ألام .

أما الرأي السائد ، إذا صرفنا النظر عن هذه الشكوك ، وأبدنا إلا إحسان الظن بتصريحات أبي تمام ، وهدمنا الشبهات السابقة ، فيترتب عليه قبول أن أبا تمام ولد سنة ١٨٨ وسواء أكان هذا أم ذاك ، فإن أبا تمام ولد في جاسم ، كما بينت سابقا ، قرية من قرى الشام تقرب من دمشق .

٣ - نشأته

(١) في الشام : ولا أظنه نشأ إلا كما ينشأ أبناء الفقراء من أهل عصره . يرسل إلى كتاب القرية ليتعلم القراءة والكتابة ، وليحفظ القرآن الكريم . ودعك من ذكر نصرانية أبيه ، فما كانت إلا افتراء من افتراء خصوم أبي تمام . وقد حفظ أبو تمام القرآن كما يبدو ذلك من شعره . ولكنا لا نعلم أكان ذلك في كتاب القرية أم بعد نزوله مصر واتصاله بجامعة الأكر . وأغلب ظني أنه حفظه في مصر ، فلم يترك أبو تمام طويلا في الكتاب .

وكان أبوه عطارا بدمشق ، يكسب قوته من عمله ، فلم يلبث أن أخرج ابنه من الكتاب ، لبودعه عند حائك بدمشق يخدمه ، ويعمل عنده — على حد تعبير ابن خلكان — حتى يتعلم صنعة يعيش من ورائها . يقول ابن عساكر في "تاريخ دمشق" في سند ينتهي إلى يحيى بن صالح أبي الوليد ، قال : "رأيت أبا تمام الطائي ، حبيب بن أوس بدمشق ، غلاما يعمل مع قزاز . كان أبوه نحازا بها^(١)"

— (ب) الرحلة إلى مصر : وقد عمل الغلام زمنا لا نعرف مداه . ولم يكن يخيل لأبيه أوس ، أن هذا الفتى الذي لم يزد أمله فيه على أن يكون صائغا يكسب قوته بعرق جبينه ، سيصبح سيد شعراء العربية . ولكن الولد كان أكبر همة مما ظن أبوه ، فلم يلبث أن رحل إلى مصر ، رحل إليها رحلة

ليست على ما نظن أكثر من رحلة المغامرين، يطلب الغنى حيث يأمل، بعد أن لم يحده حيث كان، ولكن الصولى يقول لنا نقلا عن البحترى إن أبا تمام قال له : أول شعر قلته :

* تَقَى جَمَّحَاتِي لَسْتُ طَوْعَ مُؤَنِّي *

ومدحت بها عياش بن لهيعة ، فأعطاني خمسة آلاف درهم^(١) .

فإذا كان هذا أول شعر قاله أبو تمام فإن قصيدته :

أَظْنِيَّةٌ حَيْثُ اسْتَنْتِ الْكَتَبَ الْعَفْرُ رَوَيْدِكَ لَا يَغْتَالِكِ اللُّؤْمُ وَالزُّبْرُ^(٢)

التي يمدح فيها آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بصرح فيها بأن سنة يوم قالها لم تكن

بلغت السابعة عشرة، فهو يقول منها :

وَإِنَّ الَّذِي أَحْدَانِي الشَّيْبَ لِلَّذِي رَأَيْتُ وَلَمْ تَكُنْ لِي السَّبْعُ وَالْعَشْرُ

وهي بمقتضى ما ينقل البحترى عن أبي تمام، ليست أول قصيدة لأبي تمام، فإن أبا تمام قد نزل

مصر قبل السابعة عشرة بكثير . إذ بقى في مصر ما لا يقل عن خمس سنوات :

أَنْحَسَةُ أَحْوَالٍ مَضَتْ لِمَغِيْبِهِ وَشَهْرَانِ بَلْ يَوْمَانِ نُكُلٌ مِنَ الشَّكْلِ

أما الفترة التي يمكن أن تؤكد أن أبا تمام كان خلالها في مصر، فهي من سنة ٢١١ إلى سنة ٢١٤،

قضى جزءا من هذه الأخيرة في مصر، وجزءا في العراق :

لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ بِمَصْرَ وَفَيْعَةً أَقَامَتْ عَلَى قَصْدِ الْهَدْيِ كُلِّ مَائِلِ

على الخندق الأقصى وما كان حوله وما قد يليه من فضاء وساحل

رَأَى ابْنَ السَّرِيِّ النَّصْرَ أَوَّلَ يَوْمِهِ وَأَوْدَى بِقَرْمٍ مِنْ أَبِي السَّرِيِّ بَاسِلِ

لَوْ بِنَ جَمُوعِ ابْنِ السَّرِيِّ وَخَيْلِهِ شَمَاطِيطَ تَتْرَى كَالنِّعَامِ الْجَوَافِلِ

فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُ لَا مَحِيصَ وَأَنَّهُ كِفَاحُ الرَّدَى فِي كُلِّ حَقٍّ وَبَاطِلِ

تَوَخَّوْا أَمَانَ الْأَرِيحِيِّ ابْنِ طَاهِرٍ مِنْ فَارِسٍ يَأْتِيهِ طَوْعًا وَرَاجِلِ^(٣)

وفي يوم الثلاثاء ثلاث عشرة من ربيع الآخر سنة ٢١٤، قتل أهل الحوف الثائرون والى مصر عجمير

ابن الوليد، فقال أبو تمام قصيدته :

أَعْيِدِي النَّسُوحَ مُعْوِلَةً أَعْيِدِي وَزَيْدِي مِنْ بُكَائِكَ ثُمَّ زَيْدِي

(٢) القضاة والولاة للكندي : ص ١٧٩

(١) أخبار الصولى : ورقة ٥٤ (٢) ديوانه : ص ٨٠

(٤) المصدر نفسه : ص ١٨٠

ومنها :

أَلَا أَيْلُفُ خَلِيفَتَنَا مَقَالِي وَأَيْلُفُهُ الْأَمِينُ بْنُ الرَّشِيدِ
بِأَنَّ أَمِيرَنَا لَمْ يَأَلْ عَدَلًا وَنَصَحَا فِي الرِّعَايَا وَالْجُنُودِ

فِيَا يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ أَصْطَبَحْنَا * * *
غَدَاةً مِنْكَ هَائِلَةَ السُّورِودِ

حَضَرْتُ فَنَاءَ بِابِكِ فَاعْتَرَانِي شَجًّا بَيْنَ الْمَخْنَقِ وَالْوَرِيدِ * * *
رَأَيْتُ بِهِ مَطَايَا مُهَمَّالَاتٍ وَأَفْرَاسًا صَوَافِنَ بِالْوَصِيدِ^(١)
^(٢)

وقال غيرها . وفي رجب سنة ٢١٤ هـ يهزم عيسى بن زيد الجلودى ، في الثَّويرة ، وهو يومئذ
والى مصر من قِبَل المأمون للمرة الثانية ، وهازموه هم الثَّائرون . فيقول أبو تمام في ذلك ، يمدح
الثَّائرين من القيسية واليمانية ، ويذم الجلودى :

اللَّهُ أَرْهَقَكَ الْهَزِيمَةَ إِذْ جَذَبْتُكَ أَحْبَالُ الرَّدَى جَذْبًا^(٣)
وَأَتَيْتُكَ خَيْلٌ ، لَوْ صَبَرَتْ لَهَا ، أَنْهَبَ رَوْحُكَ فِي الْوَغَى نَهْبًا
مِنْ حَيٍّ عَدَنَانٍ وَإِخْوَتِهِمْ قَطَّانَ لَا مِيلًا وَلَا نُكْبًا^(٤)

ولكن وجوده في هذه الفترة معناه أن سنه كانت ؛ على فرض ولادته سنة ١٨٨ ، تزيد على
عشرين سنة يوم دخل مصر ، إذا قدرنا أنه لم يظل فيها أكثر من خمسة أحوال ، كما قال ، فيكون
أول شعر قاله ، هو بعد سن العشرين . مع أنه يصرح في شعر ليست له هذه الأولية أن سنه
لا تزيد على سبع عشرة سنة . كما أننا لا نسمع عن ممدوحه عباس بن طيبة الحضرمي بعد سنة ٢٠١
في مصر . فلا يبقى ليلاثم بين هذه كلها إلا القول بأن أبا تمام نزل مصر مرتين ، ثانيتهما هي هذه
التي بدأت سنة ٢١١ ، وانتهت برحيله إلى العراق سنة ٢١٤

أما المرة الأولى فتكون حول سنة ٢٠١ ، ومعنى ذلك أن أبا تمام نزل مصر وسنه لا تزيد على
اثنى عشرة سنة ، ورحلها ولما يبلغ السابعة عشرة . ونكون بذلك أمام قتي يفعل المعجزات ،
ويهاجر في طلب الثروة طفلاً ، أو مدفوعاً بعامل لا نعرفه ، ويكافح في مصر كفاحاً فيه ما فيه من

(١) ديوان ص ٢٠٩ (٢) الكندي ص ١٨٦ (٣) الديوان : ص ١٧٩ (٤) ميلا : جمع أميل .
والأميل ، من لا ترس معه أو لا سيف أو لارح ، والجبان . والأنكب : من لا قوس معه .

عناء لحدث مثله ، فيحصل العلم في جامعها الأكبر ، ويعيش من سقاية الماء أو من عمل آخر ، لم يبين لنا التاريخ ما هو .

(ج) حياة أبي تمام في مصر : كانت مصر ، كما هي اليوم ، قبله أنظار العالم الإسلامي ، ومطعم طلاب الغنى والجاء ، ومعهد كثير من الجمال يجتذب القلوب . وكان جامع عمرو فيها مستقر مدرسة من أعظم المدارس الإسلامية . ونظرة في كتاب حسن المحاضرة للسيوطي ، كافية لإطلاع الإنسان على مبلغ عظمة الحركة العلمية في مصر يومئذ .

ولقد نزل الشافعي مصر سنة ١٩٥ "وصنف كتبه الجديدة كالأم ، والأمالى الكبرى ، والأمالى الصغرى ، ومختصر البويطي ، ومختصر المنزقي ، ومختصر الربيع ، والرسالة ، والسنن . قال ابن زُولاق : صنف الشافعي نحواً من مائة جزء ، ولم يزل بها ناشراً للعلم ، ملازماً للاشتغال بجامع عمرو ، إلى أن أصابته ضربة شديدة ، مرض بسببها أياماً ، ثم مات يوم الجمعة سلخ رجب سنة سنة أربع ومائتين^(١) . هذا ما يقوله السيوطي ، ولست أظن أنه صنفها جميعاً في مصر .

وعلى كل حال ، فمصر كانت ذات أثر سحري في الشافعي ، في غزارة إنتاجه ، وتوجيه مذهبه ، وتصفية ذهنه . ولقد أبان أستاذنا أحمد أمين هذا في كتابه "ضحى الإسلام" في فصل ممتع .

وكان الشافعي في مصر ، في تلك الفترة التي استندجت أن أبا تمام كان فيها في مصر يتردد على جامع عمرو .

وكان قبل الشافعي في مصر فقهاء عظام ، كالليث بن سعد المصري وتلاميذه . وكان فيها أيام الشافعي من الفقهاء إسحاق بن القُرات أبو نعيم التَّجِيبِي ، صاحب مالك . قال الشافعي : ما رأيت بمصر أعلم باختلاف الناس من إسحاق بن القُرات . وروى عن الليث وغيره ومات سنة ٢٠٤^(٢) وأشهب بن عبد العزيز العامري ... قال الشافعي : " ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه " . ومات سنة ٢٠٤ ، وعبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع المصري ... وثقه ابن زُرعة وغيره . ولد سنة ١١٥ أو سنة ١١٤ وغير هؤلاء كثيرون ، مما يدل على أن الحركة يومئذ ، كانت قوية جارفة ممتلئة حياة .

وكان في مصر في تلك الفترة ابن هشام ، الذي اختصر كتاب السيرة لابن إسحاق . وكان إماماً في اللغة والنحو والعربية ، أديباً أخبارياً نساباً . قال الذهبي : سكن مصر ومات سنة ٢١٨

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ص ١٣٦ (٢) المصدر نفسه ص ١٣٦

ثمان عشرة ومائتين . وقال ابن كثير : كان مقبلاً بديار مصر ، وقد اجتمع به الشافعي حين ورودها ، وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة ^(١) .

وقدم مصر من الشعراء ، قبل أبي تمام ، جميل بن عبد الله بن معمر العذري صاحب بثينة ، ومات بمصر سنة ٨٣ هـ ، ووردها أيضا كثير عزة المتوفى سنة ١٠٥ هـ ، وماتت بها عزة صاحبته ، وبها دفنت ، ووردها عبيد الله بن قيس الرقيات .

ووردها أنصيب بن رباح الشاعر أبو مخجن ، من شعراء الحماسة ، ووردها أبو نواس ، وأقام بها مدة ^(٢) ، وقدمها دعبل في عهد المطالب بن عبد الله الخزاعي . وكان دعبل في مصر حوالى سنة ٢٠٠ هـ ، كما بين من شعره في المطالب لما هزم آخر مرة ^(٣) . وقدمها بعد أبي تمام كثيرون أيضا ، منهم أبو العباس الناشي وكشاجم والمتنبى وغيرهم .

ففى مصر أبدا ذلك القبس الخالد من المعرفة والإلهام والجمال المتفجر نوره ، فى سحر يجتذب القلوب ، ومصر التى هدت العالم من قبل ، على ضوء حضارتها وجهادها فى سبيل البشرية ، قد ساهمت ، على مرور الأيام ، فى بث هذا النور فى قلب كل من أودع الإنسانية ثمرة من عبقرية ، أو أثرا من هداية .



نزلها أبو تمام بنفس وثابة ، وقلب ذكى ، وعلم بالقراءة والكتابة ، وشيء لا نعرف قدره من الإلمام بصناعة الحياة أو القسازة . فلم يلبث أن جرى لسانه بالشعر فياضاً كالنيل ، ينساب عذبا كجائه المحبوب . كان يتردد على جامع عمرو ، فيسمع من أساتذة أجلاء ، يطفئون ظمأه إلى العلم ، ويطفئ ظمأهم إلى الماء . نزلها حائكا ، وقذفت به أشعر شعراء العربية على الإطلاق .

[وإلى لا تحيل ذلك الفتى الذى لم يرفع أسمر اللون ، طويل القامة بالنسبة لسنه ، حلو الحديث ، فيه تتممة يسيرة ، يختلط بعينه بريق الذكاء بظل من ذلة الفقر ، خفيف الروح ، يتعثر فى ثيابه ، وقد حنى رأسه قليلا تحت ثقل ذلك الوعاء ، الذى يحمله على ظهره ليسقى منه الماء . وهو يتنقل من حلقة إلى حلقة ، ويصنعى إلى شيء من القصص ، وإلى شيء من التاريخ ، وإلى شيء من الشعر ، وإلى شيء من الفقه ، وإلى شيء من الحديث ، وإلى شيء من الفلسفة ، ويخلط هذا بذلك ، ويحفظ ما استطاع أن يحفظ .]

(١) حسن المحاضرة ص ٢٥٤ ج ١ (٢) حسن المحاضرة ص ٢٦٧ ج ١ (٣) القضاة والولاة ص ١٦١

(د) نواحى ثقافة أبي تمام : وكان أبو تمام ذا ميل إلى الأدب ، بفالس الأدباء والشعراء ، وأخذ فى تحصيل الشعر . لحفظ ، على ما يقول ابن خلكان ، أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد . ولم يقل الشعر قبل أن يحفظ سبعة عشر ديوان شعر للنساء ، فضلا عن الرجال ، كما يقول ابن رشيق فى العمدة . ثم قال أول شعره فيها كما ذكرت . ويستطيع الإنسان أن يتعرف نواحى دراسة أبي تمام فى سهولة ، من مطالعة ديوانه . وأول شىء يأخذ بالنفس فى ديوانه من هذه الناحية هو :

أثر القرآن :

لا أعرف شاعرا من شعراء العربية تأثر بالقرآن تأثر أبي تمام به . فإن القارئ لا يكاد يضى فى الديوان ، حتى يعثر بين خطوة وأخرى ، بشاعر كأنما يضع نصب عينيه النقل من الكتاب الكريم . ولأضرب مثلا لذلك قصيدته فى مدح المعتصم ، وذكر إحراق الأفسنين وصلبه ، ففيها كأنما أخذ القرآن بلبه ، وأستأثر ببحاله . فمنها :^(٢)

مَكْرًا بَنَى رَكْنِيَّهٖ إِلَّا أَنَّهُ وَطَّدَ الْأَسَاسَ عَلَى شَفِيرِ هَارٍ
ففيه شفير هار ، وما أقربها من جُرْفِ هار .
ومنها :

طَارَتْ لَهَا شُعْلٌ يَهْدِمُ لَفْجُهَا أَرْكَانَهُ هَدَمًا بِغَيْرِ غُبَارٍ
فَفَصَّلَنَ مِنْهُ كُلَّ تَجْمَعٍ مَفْصِلٍ وَفَعْلَنَ فَاقِرَةً بِكُلِّ فَقَارٍ
قال أبو بكر الصولى : إنما قال : وفعلن ؛ لخص هذه اللفظة ، لقول الله جل وعز : « تَظَنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ » .
ومنها :

صَلَّى لَهَا حَيًّا ، وَكَانَ وَقُودَهَا مَيْتًا ، وَيَدْخُلُهَا مَعَ الْفُجَّارِ
ومنها :

لَوْ لَمْ يَكِدْ لِلْسَامِرِيِّ قَبِيلُهُ مَا خَارَ عَجْلُهُمْ بِغَيْرِ خُورٍ
وَتَمُودُ لَوْ لَمْ يُدْهِنُوا فِي رِجْلِهِمْ لَمْ تُرْمَ نَاقَتُهُ بِسَهْمٍ قُدَّارٍ

(١) فى مؤخره شرح التبريزى لديوان أبي تمام رواية عن الجمل المصرى ، قال : إنه خرج مع أبي تمام إلى شاطئ النيل بمصر ، ودفعا بياهما إلى من يفسلها . فنام الجمل ، وجلس أبو تمام ومعه شعر الطرطاح ، فافترغ الرجل من دق النياب حتى حفظ أبو تمام خمس عشرة قصيدة (٥٠ أدب ش) . (٢) ديوانه ص ٧٥

ومنها :

ثانيه في كيد السماء ولم يكن لأثنين ثالث إذ هما في الغار

فها هي ذى سبعة مواضع ، في قصيدة واحدة ، يقتبس فيها من القرآن لفظا ومعنى ؛ وفيها نفسها يشير إلى القرآن غير ذلك مرتين ، فيقول عن سعد بن أبي السرح :

حتى استضاء بشعلة السور التي رفعت له تنجفا عن الأسرار

ويقول :

سور القرآن الفخر فيكم أنزلت ولكم تصاغ محاسن الأشعار

والقصيدة كلها مثل لعلم أبي تمام ، وثقافته ، وروح عصره . وقد أشرت في مكان آخر إلى نقص منه فيها ، من الناحية الإنسانية ، وأكتماله من الناحية الشعرية الخالصة . وهذا يشير إلى أنها تمثل ثقافة أبي تمام ، ففيها غير أثر القرآن أثر العلم بالتاريخ الإسلامي ، والأخبار الجاهلية ، والقصص الديني .

وقطعة أخرى لم تذكر في ديوانه ، قالها في عبد الله بن طاهر في خراسان لما حجزه ببابه ، هو وجاعة زمانا ، فكتبها في ورقة ، وأرسلها إليه ، وهي ^(١) :

أيهذا العزيز قد مسنا الضر جميعا وأهلنا أشتات
ولنا في الرجال شيخ كبير ولدنا بضاعة مزجاة
قل طلابها فاضحت خسارا فتجارنا بها ترهات
فاحتسب أجرا وأوف لنا الكيد بل وصدق فإننا أموات

ويقول :

قد أوتيت من كل شيء نعمة وددا وحسنا في الصبا مغموسا
لولا حداتها وأنى لا أرى عرشا لها لحسبتها بأقيسا

فما أبرع نقله فيهما عن الآية الشريفة :

- « إني وجدت امرأة تملكهم ، وأوتيت من كل شيء ، ولها عرش عظيم . »

ويقول :

من كل سابعة الشباب إذا بدت تركت عميد القرينين عميدا

يقول التبريزي في شرحه :

« وإنما بنى هذا الكلام على الآية ، وهى قوله عز وجل : « وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم » .

ويقول في وصف المطر :

هَدِيَّةٌ مِنْ صَمَدٍ جَوَادٍ لَيْسَ بِمَسْلُودٍ وَلَا وَلَادٍ
ويقول :

مَثَلَتْ لَهُ تَحْتَ الظَّلامِ بِصُورَةٍ عَلَى الْبَعْدِ أَقْتَتُهُ الْحَيَاءُ مُصَمِّمًا
كَيْوَسَفَ لَمَّا رَأَى بَرهَانَ رَبِّهِ وَقَدْ هَمَّ أَنْ يَعْرِوِرَى الذَّنْبَ أُخْجِمًا
ويقول :

لَمَّا وَرَدَنَ حِيَاضَ سَبِيكَ طُلُوحًا خَيَّمَنَ ثُمَّ شَرِبَنَ شُرْبَ الْهِيمِ
ومنها :

أَخْرَجَتْهُمْ بَلْ أَخْرَجَتْهُمْ فِتْنَةً سَلَبَتْهُمْ مِنْ نَضْرَةٍ وَنَعِيمٍ
تَقَلَّوْا مِنَ الْمَاءِ النَّمِيرِ وَجَنَّةٍ رَغَدَ إِلَى الْغَسِيلِينَ وَالزُّقُومِ
ويقول :

طَوَى أَمْرَهُمْ عَنُوءَةً فِي يَدَيْهِ طَى السَّجِلَ وَطَى الرِّدَاءَ
ويقول :

فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ
ويقول :

كَانَ بِلَادِ الرُّومِ عُمَتْ بِصَبِيحَةٍ فَضُمَّتْ حَشَاهَا أَوْرَاقًا وَسَطَهَا السَّقْبُ
ويقول :

وَيِنَّ اللَّهَ هَذَا مِنْ بَرِيَّتِهِ فِي قَوْلِهِ « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ »

فإن يكف هذا ، وإلا فإن الرجوع إلى الديوان كفيلا بأن يمدك بالكثير منه ، وإن كنت أطلت في تعداد الأمثال ، فإلا ذلك إلا لآتى وجدت في تلك الاقتباسات والتضمينات مثلاً خلاصة لحسن الاستفادة ، وسلامة الذوق ، وحلاوة العبارة .

أثر التاريخ :

وناحية أخرى تلى هذه الناحية أثرا في ثقافته . وهى الإسلام بأيام العرب وتاريخهم ، فى الجاهلية والإسلام ، وقصصهم وأساطيرهم . وفى شعره أيضا بعض إشارات موجزة إلى تاريخ الفرس ، كقوله :

لقد أذكرانا بأُسَ عَمْرٍو ومُسَهِرٍ وما كان من إسفنديار ورُسَمَا

وهو يذكرها فى شعره ، فيجريها مجرى الأمثال ، للتدليل على قدرة ممدوحه . وهنا يظهر أثر هذا العصر ، الذى أنجب ابن هشام . ولا أظن إلا أن أبا تمام قد رأى ابن هشام ، وسمع منه . فقد اجتمع ابن هشام بالشافعى فى مصر ، وبقي فيها إلى أن مات سنة ٢١٨ هـ ، أى أن وجوده فى مصر يضم بين ضفتيه قترتي وجود أبي تمام فى مصر . وأبو تمام كثير التمثل بأحداث التاريخ ، فى كل مناسبة تين له ، فى تصوير الحرب ، وفى الرثاء ، وفى المدح ؛ وأذكر لذلك أمثلة :

يقول أبو تمام :

كم وقعةٍ لى فى الهوى مشهورةٍ ما كنتُ فيها الحارثَ بنَ عُبَادٍ

يقول التبريزى (ج ٢ ص ٢٧) : ”يعنى أن الحارث بن عباد اعتزل حرب بكر وتغلب حتى قتل ابن أخيه جبير . والقصة مذكورة بوضوح فى مجمع الأمثال للبدانى ، فى الكلام على المثل :

”أشام من البسوس“ . وهى رائعة ، تترج فيها الإنسانية ، بالحلم ، بالرجولة ، بالشعر ، امتزاجا أخاذا ، يرى مبلغ ما أراد أبو تمام أن يهزم من نفس قارئه أو سامعه ، بتذكيره بالقصة ، ويقول الحارث فيها :

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلِمَ اللّٰهُ لَمْ يَأْتِ بِحَرْهَا الْيَوْمَ صَالِي

ويقول :

تُرْفُ إِلَيْكُمْ يَا بَنَ نَصْرِ كَانَتْهَا حَلِيلَةُ كَسْرَى يَوْمَ آوَاهُ قَيْصَرُ

ويقول :

لَمْ يَوْمُ ذِي قَارٍ مَضَى وَهُوَ مَفْرَدٌ وَحِيدٌ مِنَ الْأَشْبَاهِ ، لَيْسَ لَهُ صَحْبُ

بِهِ عَلِمْتُ صُحْبُ الْأَعَاجِمِ أَنَّهُ بِهِ أَعْرَبْتُ عَنْ ذَاتِ أَنْفُسِهَا الْعُرْبُ

هُوَ الْمَشْهُدُ الْفَضْلُ الَّذِى مَا نَجَا بِهِ لِكَسْرَى بَنِ كَسْرَى لَا سَنَامٌ وَلَا غَرْبُ

يقول التبريزي في شرح البيت :

”أى به علمت الأعاجم ، ما كانت تنطوى لها عليه العرب ، من طلب الفرصة للوثوب عليهم“ .

ويقول :

إِنْ خيراً مما رأيت من الضفء سج عن النائبات والإغماض
غُرْبَةً تَقْتَدِي بِغُرْبَةِ قَيْسٍ بـ بن زهير والحارث بن مُضاض

ويقول :

أموافٍ الفتيان تطوى لم تزر شوقاً ولم تندب لمن صعيداً ؟
أذكرتنا الملك المضلل في الهوى والأعشىين وجرولاً وليداً
حلوا بها عقد الذيب وتمنموا من وشها رجزاً بها وقصيذاً^(١)

وقد يطيل في ذلك إطالة محبة ، كقوله مادحا إسحاق بن مصعب ، ذا كرا إيقاعه بالمحمرة من أصحاب بآبك ، يقول عن إيقاعه بهم :

مَحَوَتْ بِهَا وَقَائِعَ مِنْ مَلُوكِ وَكُنْ وَقَدْ مَلَأْنُ الْخَافِقَيْنِ
صَيِّحَةً خَازِرٍ أَنْتَ ، وَمَهْوَى عُيَيْدِ اللَّهِ فِيهَا وَالْحَصَّيْنِ
وَقَيْفَ الرِّيحِ إِذْ دَلَقْتُ مَعْدُ بِأَجْمَعِهَا وَأَسْرَةً ذَى رُعَيْنِ
وَأَيَّامَ الذَّنَائِبِ زَعَزَعْتَهَا وَيَوْمَ مُهْلِهِلٍ وَالشَّعْثَمَيْنِ
وَأَيَّامَ الْكُلَابِ غَدَاةَ هَرَّتْ مُرَارَيْنِ فِيهَا مُتَرَفَيْنِ
أَخْ تَرَكْتَ أَسِنَّةَ أَخَاهِ كَلِيلًا لِلْجَيْنِ وَلِلْيَدَيْنِ
وَمِنْ سَاتِيذٍ مَا بَرَوَانَ فَلَتْ شَبَا نَخِيرٍ فَسِيحِ الطَّائِفَيْنِ

(١) يتحدث أبو تمام في هذه الأبيات عن موافف الشعراء بالأطلال ، وقد بكأها في أول القصيدة ، وكأنما كان يساوره أن يدع هذا البكاء ، ويقطع عن هذه السنة ، ولكنه لم يستجب لما خالجه ، فبكأها . فهو يسائل نفسه منعجاً من هذا الذي خطره ، وهو الذي قد أبدع في وصفها ، والوقوف عندها إبداعاً يذكر بالشعراء الذين ذكرهم ، وهم من قد زانوا بهذه الوقفات على الأطلال عقود نسبيهم ، وزخرفوا بوشها أرجازهم وقصائدهم . هذا إذا كان الفعل حلى من الحلية . فإذا كان الفعل حل ، من الحل ضد العقد ، وعقد جمع عقدة ، كان معناه أنهم روضوا بهذا الباب من الغزل ما امتنع من التسيب ، فأوجدوا به لأنفسهم مجالا للقول ؛ فإذا فهمنا في باء ” بها “ معنى ” في “ كان لنا أن نعتبر حل العقدة بمعنى الفيض بالقول كما يسيل ماء السحابة إذا انحلت عقدها . أى أنهم لما وقفوا بها حركت أشجانهم ، فنفجرت ألسنتهم بالشعر نسياً ؛ وقد تكون العبارة أذكرتنا ونون النسوة فيها تعود على المواقف .

بَلَا فِيهَا إِيَّاسٌ كُلُّ لَذِينِ وكلُّ مُصَمِّمٍ فِي الْعَظَمِ لَيْنِ
وَجُجْرَا وَأَمْرَأُ الْقَيْسِ بْنِ جُجْرٍ لِيَالَى كَاهِلٍ وَبَنَى قَعِينِ
وَيَوْمَ الْبِشْرِ أَنْسَتْهُ وَهَدَّتْ وَقَائِعَ رَاهِطٍ وَبَنَاتِ قَيْنِ
وَيَوْمَ الْمَصْدِفَةِ حِينَ سَامُوا أَنْوِشِرَوَانَ خَطْبَا غَيْرِ هَيْنِ
وَلَكِنْ أَذْكَرْتَنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَمَشَجَرَ الْأُسْنَةِ فِي حُنَيْنِ

ويقول مشيراً إلى تاريخ الإسلام في عزاء مالك بن طوق في أخيه :

وَقَالَ عَلِيٌّ فِي التَّعَاذِي لِأَشْعَثِ وَخَافَ عَلَيْهِ بَعْضُ تِلْكَ الْمَآثِمِ :
أَنْصَبِرُ لِلْبَلَوَى عِزَاءً وَحِسْبَةً فَتُوجِرَ ، أَمْ تَسْلُو سَلَوَ الْبَهَائِمِ ؟
وَلِلطَّرَفَاتِ يَوْمَ صِفِّينَ لَمْ يُمْتِ خُفَانًا وَلَا حِزْنَ عَدِيٍّ بِنْ حَاتِمِ^(١)

ويقول في تاريخ الرسول ذا كرا عليا :

يُسَدُّ بِهِ النَّفْسُ الْخَوْفُ مِنَ الرَّدَى وَيَعْتَاضُ مِنْ أَرْضِ الْعَدُوِّ بِهِ الثَّغَرُ
بِأَحَدٍ وَبَدْرٍ حِينَ مَاجَ بَرَجِلِهِ وَفُرْسَانَهُ أَحَدٌ وَمَاجَ بِهِمْ بَدْرُ
وَيَوْمَ حُنَيْنٍ وَالنَّضِيرِ وَخَيْبَرِ وَبِالْحَنْدَقِ الشَّوَى بِعَقْوَتِهِ عَمْرُو

ويقول فيما كان بين النبي وسعد بن أبي سرح في شأن الوحي :

هَذَا النَّبِيُّ وَكَانَ صَفْوَةً رَبِّهِ مِنْ بَيْنِ بَادٍ فِي الْأَنَامِ وَقَارِ
قَدْ خَصَّ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ عِصَابَةً وَهُمْ أَشَدُّ أَذَى مِنَ الْكُفَّارِ
وَأَخْتَارَ مِنْ سَعْدِ لَعِينِ بَنَى أَبِي سَرَحَ لَوْحِي اللَّهُ غَيْرَ خِيَارِ
حَتَّى اسْتَضَاءَ بِشُعْلَةِ السُّورِ الَّتِي رَفَعَتْ لَهُ مَجْفَاً مِنَ الْأُسْتَارِ

ثم يقول :

وَالهَاشِمِيُّونَ اسْتَقَلَّتْ عَلَيْهِمْ مِنْ كَرْبَلَاءَ بِأَوْثَقِ الْأَوْتَارِ
فَشَفَاهُمُ الْمُخْتَارُ مِنْهُ وَلَمْ يَكُنْ فِي دِينِهِ الْمُخْتَارِ بِالْمُخْتَارِ
حَتَّى إِذَا أَنْكَشَفَتْ سَرَائِرُهُ أَغْشَدُوا مِنْهُ بِرَاءَ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ

وغير هذا كثير، مما يدل على طول باع في العلم بالتاريخ .

(١) والطرفات ، معركة : بنو عدى بن حاتم ، قتلوا بصفين ، وهم طريف ، وطرفة ، ومطرف .

روايته بعض الأحاديث :

ولأبي تمام ذكر في المحدثين . ففى تاريخ دمشق لأبن عساكر، أنه روى حديثاً عن رسول الله . وهذا الحديث اتصل بالحافظ بن عساكر نفسه ، وأسماء الرواة فيه مضطربة لكثرة الخطأ بالكتاب . قال الحافظ : أخبرنا أبو الحسن ، أنبأنا القاضى أبو المظفر بن إبراهيم بن نصر النسفى ، أنبأنا عبد الحى بن عبد الله بن موسى الجوهري بن الفضل الشاعر ، أنبأنا خالد بن يزيد الشاعر ، حدثنى أبو تمام : حبيب بن أوس الشاعر ، حدثنى صهيب بن أبي الصهبان (أو الصهباء) الشاعر ، حدثنى الفرزدق همام بن غالب الشاعر ، حدثنى عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الشاعر ، حدثنى أبي حسان ابن ثابت الشاعر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” يا حسان ، آهجهم وجبريل معك . وقال : إن من الشعر حكمة . وقال لى : إذا حارب أصحابى بالسلاح ، فحارب أنت باللسان “ انتهى . وآتصال موضوع الحديث بصناعة أبي تمام وعمله ، لا يدل على أنه كان يطلب الحديث طلب المخصص له جهداً . ولكنه يدل على أنه اتصل بالمحدثين .

روايته الأدب :

وقد روى أبو تمام فى الأدب عن كثيرين ، ذكرهم الصولى فى كتابه ” أخبار أبي تمام “^(١) ولا يلزم فى روايته أن يكون اتصل بمن روى عنهم . فقد روى عن الخطيئة مثلاً ؛ ومن روى عنهم كرامة بن أبان العدوى ، وأبو عبد الرحمن الأموى ، وسلامة ابن جابر النهدي ، وقِلابة الحرّمى ، ومحمد بن خالد الشيباني ، وغيرهم .

ورواياته عن هؤلاء جميعاً فى الأدب : عبارات قصيرة موجزة أشبه بالحكمة ، والمثل السائر . وأضرب مثلاً لها . يقول الصولى : ” حدثنا أحمد (بن أبي طاهر) ، قال : حدثنا أبو تمام ، قال : حدثنا كرامة ، قال : تكلم رجل فى مجلس الهيثم بن صالح ، فهدر ولم يصب ، فقال له : يا هذا ، بكلام أمثالك رزق الصمت المحبة “ . وجميع رواياته تشبه هذه .

اتصاله بالمذاهب فى عهده :

فى شعر أبي تمام إشارات إلى بعض المذاهب الفلسفية ، المتصلة بالدين والسياسة فى عصره ، لا يستعمل منها مذهباً استعمال المعتقد له (إلا مذهب الانتصار لعل وشيعته) يتناولها فى قصيدة طويلة مذكورة فى ديوانه . أما الباقى لإشارات موجزة ، كقوله فى وصف النمر :

جَهْمِيَّةُ الْأَوْصَافِ إِلَّا أَنَّهُمْ قَدْ لَقَّبُوهَا جَوْهَرِ الْأَشْيَاءِ
وكقوله :

فَلَوْ صَحَّ قَوْلُ الْجَعْفَرِيَّةِ فِي الَّذِي تَنْصُ مِنْ الْإِلْهَامِ خِلْنَاكَ مُلْهُمَا
وقد يستعمل بعض الألفاظ الفلسفية في شعره ، كقوله :

صَاغَهُمْ ذُو الْجَلَالِ مِنْ جَوْهَرِ الْحَجِّ دِ وَصَاغَ الْأَنَامَ مِنْ عَرَضَةٍ
وهو يجيز لنفسه استعمال اصطلاحات علمية في الشعر ، كقوله ، وفيها اصطلاحان من
اصطلاحات النقهاء :

فَإِنْ يَكُ ذَنْبٌ عَزَّ أَوْ تَكُ هَفْوَةٌ عَلَى خَطَا مَنِ فَعَذَرَى عَلَى عَمْدٍ
ويقول في وصف الخمر :

نَحْرَاءُ يَلْعَبُ بِالْعُقُولِ حَبَابُهَا كَتَلَاعِبِ الْأَفْعَالِ بِالْأَسْمَاءِ

وقد يشير إلى النجوم إشارات تنبئ عن اتصال بعلم التنجيم ، وقد أزهى في عصره ، يقول :
لَهُ كِبَرِيَاءُ الْمُشْتَرَى وَسَعُودُهُ وَسُورَةُ بَهْرَامٍ وَظَرْفُ عُطَارِدٍ
وفي شرح البيت منقول عن الخارزنجي ما يأتي^(١) :

”المشتري كوكب العظماء والملوك ، وبهرام هو المريخ ، وهو كوكب السلطان ، وعطارد كوكب
الكتاب والأدباء“ . وهي معان أشبه بما نعرف من رموز اليونان إلى آلهتهم .
ويقول في مكان آخر ، في مدح نوح بن عمرو السكسكي :

مَنَاسِبُ مُحَسَّبٍ مِنْ ضَوْئِهَا مَنَازِلًا لِلْقَمَرِ الطَّالِعِ
كَالدُّلُوِّ وَالْحَوْتِ وَأَشْرَاطِهِ وَالْبَطْنِ وَالنَّجْمِ إِلَى الْبَالِعِ

والحاح أبي تمام على المنجمين في عصره بالتهكم ، فيه ما يأنس الإنسان منه نظرة لاتباعهم ،
كقوله في فتح عمورية :

السِّيفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لَأَسْوَدُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِنِ جِلَاءِ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ

وقد ذكر المنجمين في موضع آخر أو أكثر بمثل هذا التهكم .

النحو :

—والم أبو تمام بالنحو إلما حسا ، فلم يؤخذ عليه في كثير من المواضع خطأ نحوي ، بل إن أحدهم ليعترض على بيته :

أغرث همومي فأصطحبن همومها ، نومي ، وبثن على فضول وسادي

(وقد رويت فأصطحبن همومها ، وأستلبن أيضا) . أعترض عليه بقوله ، إن أصطحب لا تأخذ مفعولا . فيرد عليه المرزوقي بقوله : ” إن أبا تمام كان سايم الشعر . فالمراد أصطحبن وقت نومي ، فالمصدر مستعمل بمعنى الظرف ، كما يقال آتاك طلوع الفجر^(١) “ . ولكن أبا تمام في نحوه كثير الاستعمال للغة طيء .

(١) فهو كما رأينا في بيته الماضي يقول أصطحبن همومها . وهي لغة ” يتعاقبون فيكم ملائكة “ لغة طيء . ونسبت أيضا إلى قبائل أخرى من اليمن مثل بلحريث . ولكن إلحاح أبي تمام عليها يوثق الرأي القائل بأنها لغة طيء . يقول المرزوقي في الكلام على البحث السابق : وقوله فضولها (أو همومها على اختلاف في الرواية) ارتفعت بأصطحبن ، والنون منه لم يجيء الضمير ، وإنما هي علامة تؤذن بالجمع ، كالتاء في قامت هند . وهذا أحد وجوه التأويل لهذه اللغة . وهو كثير الاستعمال لهذه النون ، يقول :

وأَكْسِمْ بِمُجْدٍ عَادَ فِيهِ نَوَالُهُ وشاعِرِ قَوْمٍ عُدْنَ فِيهِ قِصَائِدُهُ

ويقول :

شَجَا فِي الْحَشَا تَرْدَادُهُ لَيْسَ يَفْتَرُّ بِهِ ضَمْنٌ آمَالِي وَإِنِّي لَمَفْطَرُّ

وينقل التبريزي عن أبي العلاء ، في الكلام عن هذا البيت قوله :

” يبين في كلام الطائي ، أنه كان يختار إظهار علامة الجمع في الفعل ، في مثل قوله : ضَمْنٌ آمَالِي . ولو قال صام آمالي ، لاستقام الوزن “^(٢) .

(٢) وفي مقابل هذا يحذف علامة التأنيث التي تلحق الماضي ، حين يكون فاعله جمع غير العاقل ، كقوله :

كم أنجبوا قمرًا جَلَا أفعاله قمرًا ، ومَكْرُمَةٌ تُنَاغِي الفَرْقَدَا

ولو قال : جَلَتْ أفعاله لاستقام الوزن .

(٢) شرح التبريزي ج ٢ ص ٢١٤

(١) شرح التبريزي لديوان أبي تمام ج ٢ ص ٢٧١

(٣) ويستعمل أيضا من لغة طي "ذو" الموصولة، يقول :

أنا ذو عرفت فإن عرفتك جهالةً فأنا المقيمُ قِيامة العُدالِ

(٤) وفي شعره من لغة طي أيضا قوله :

هل أورك المجد إلا في بني أدٍ أو اجتنى منه لولا طي ثمرُ

يقول التبريزي :

"إذا كان آخر الماضي ياءً وقبلها كسرة، فطيءً تقلبها ألفا فيقولون آجتني، في آجتني : وأقتدى في اقتدى . ومن العرب من يسكن ، وهي لغة رديئة ؛ والأغلب أن يكون الطائي سكن الياء ههنا، ولم يستعمل اللغة الطائية" . ولا أعرف أنا ما وجه إلزامه لغة رديئة غير لغة قومه ، مع أنه يتحزأها في كثير .

(٥) ويقول قوم من طي : "دَفَنُ البَنَاءِ ، مِنْ المَكْرُمَةِ" ، موضع قول غيرهم :

"دَفَنُ البَنَاتِ ، مِنْ المَكْرَمَاتِ"

فيقول أبو تمام :

إحدى بني بكر بن عبد مناه بين الكتيب الفرد فالأمواه
ألقي النصف فانت خاذلة المني أمينة الخالي وهو اللاهي

ولقد كان أبو تمام ، على ما يظهر ، ذا علم بلهجات القبائل ؛ فإنا نرى بيته :

ثانيه في كيد السماء ولم يكن لاثنين ثانٍ إذ هما في الغار

وقد أثار ضخمة بين النحاة ، لما يجب من نصب ثان ، خبرا ليكن . ولكن يأتي الفراء فيقول : "لأنها لغة عند العرب أن تأتي بالمنصوب في لفظ المخفوض"^(٢) . ويندر أن يعتسف أبو تمام طريقه على غير القاعدة . ومن هذا النادر قوله في هجاء عتبة بن أبي عاصم :

نككت قصائدي إن مرَّ يومٌ ولما أقض فيه منك نجبا
وكنت إذن كانت فإن مثلي إذا ما كان مثلك كان كلبا

فاستعمال ضمير الرفع أنت بعد الكاف لا أعرف له وجها إلا أنها لغة نادرة .

وهو كثير التفريع في الجملة ، يغلو في استعمال الفضلات ، يقدم ويؤخر في توسعة على نفسه ، توسعة قد توقع السامع أحيانا في اضطراب ، كقوله :

لَمْ يَغْلِقِ اللَّهُ بَابَ الْعُرْفِ عَنْ أَحَدٍ بَابُ الْأَمِيرِ لَهُ الْمَأْلُوفُ مَفْتُوحُ
وساتحدث في مكان آخر عن تركيب الجملة عند أبي تمام ، وكونه كان مظهرا من مظاهر حسه
للجمال . وقد يفصل بين الصفة والموصوف بحار ومجور ، كقوله :

أَهْيَسُ الْأَيْسُ لِحَاءِ^(١) إِلَى هَمِيمٍ تُغْرَقُ الْأُسْدُ فِي آذِنِهَا اللَّيْسُ
يريد أن يقول : تغرق هذه الهمم في موجاتها الأسد الليس . وقد يعيد الضمير على متأخر ، فيقول
في هجاء عياش بن هبة الحضرمي :

وَبَقِيْتُ لَوْلَا أَنِّي فِي طَيِّ عِلْمُ لِقَالِ النَّاسِ : أَنْتَ جَرِيرُ
يَا خَلْقَةَ اللَّهِ الَّتِي مِنْ طَرَزِهَا نَشَأَ فَكَانَ الْقَرْدُ وَالْخَزِيرُ
وما أشبه " فكان " بأن تكون زائدة في البيت ، فتصبح العبارة : " نشأ القرد والخزير " . من
لغة طيئ السالفة الذكر . وغير هذا قوله :

لَوْلَا قَبُولِي نُصَحَ الْعَزْمُ مُرْتَحِلًا لَسَابِقَانِي إِلَيْهِ الرَّحْلُ وَالْجَمَلُ
وهذا البيت صريح في أنه من لغة طيئ .

وأبو تمام مشغوف باستعمال المثني شغفا واضحا ، يقول في وصف بابك :
تَحَدَّرَ مِنْ لِهَبَيْهِ يَرْجُو غَنِيمَةً بِسَاحَةِ لَا السَّوَانِي وَلَا الْمُتَخَاذِلِ
ويقول :

تَحَمَلْتُ مَا لَوْ حَمَلَ الدَّهْرُ نَصْفَهُ لَفَكَّرْتُ دَهْرًا أَيْ عَيْنَيْهِ أَنْقَلُ
ويقول :

لَوْ أَنَّ دَهْرًا رَدَّ رَجْعَ جَوَابِي أَوْ كَفَّ مِنْ شَأُونِهِ طَوْلَ عِتَابِي
ويقول :

أَبْقَى عَلَى جَوْلَةِ الْأَيَّامِ مِنْ كَنَفِي رَضَوَى وَأَسِيرُ فِي الْآفَاقِ مِنْ مَنَلِ
ويقول :

فَمَا هَضَبْنَا رَضَوَى وَلَا رُكْنَ^(٢) مُعْنِي وَلَا الطَّوْدُ مِنْ رُكْنٍ وَلَا أَنْفُ يَدْبُلَا^(٣)
بِأَنْقَلٍ مِنْهُ وَطَاءَ حِينَ يَغْتَدِي فَيُلْقِي وَرَاءَ الْمَلِكِ تَحْرًا وَكَلْكَلا

(١) الأيس : الشجاع ، والأليس : كذلك ، وجمع الأليس : الليس .

(٢) معنى : قصر عبيد بن ثعلبة بحجر اليمامة . وهو أشهر قصور اليمامة ، يقال إنه من بناء طسم ، وهو على أكمة مرتفعة .

(٣) ركن بضمين : موضع باليمامة . ويذبل : جبل مشهور بجند .

ويقول :

وليس أمرؤ في الناس كُنتَ سَلامَةً عَشِيَّةً يَلْقَى الحَادِثَاتِ بِأَعْزَلَا
يَرَى دِرْعَهُ حَصْدَاءَ وَالسَّيْفَ قَاطِعَا وَرُجِيهِ مَسْنُونٍ وَالسَّوْطَ مِغْوَلَا^(١)

ولقد تعمدت أن آتي بمعظم هذه الأبيات من صفحات متقاربة في ديوانه، ليرى في جلاء غرام أبي تمام باستعمال المثني، في غير ضرورة قاهرة .

* *

ولم أقصد في سرد وجود ثقافة أبي تمام إلى أول شعره، كما أني لم أعمد إلى متأخره، وإنما وضعت يدي على ماتيهيلى في شعره، حين توخيت تأريخ ثقافته، في غير نظر إلى أزمان . إذ قد يتقدم زمن الشعر أو يتأخر ولكن المؤثر فيه واحد . وثقافة الإنسان آخر عمره، ليست إلا نتاجا لما جنى في كل سنيه . كما أن الانعكاسات الذهنية والنفسية للثرات قد تتأخر زمنا طويلا، حتى يبين أثرها واضحا، وحتى تهضمها القوى، وتروضها المعالجة والممارسة . والنظر في التاريخ العلمى لذلك العصر، يرى شدة الصلة بين ما يدرسه الطالب في مصر وما يدرسه في غيرها حيث تسيطر عوامل متشابهة، وبيئة علمية لا تتفاوت في الأصول والجواهر، وإن تفاوتت في الأعراض . ولقد كانت الثقافة المعتادة لكل طالب علم يومئذ، هى مارأينا أبا تمام يلم به . فلا يكاد الإنسان يظن أنه دخل جامع عمرو ليدرس العلم فيه، فخرج منه ولم يحفظ القرآن، أو يعرف النحو، مع أن كل العلوم كانت ترتبط يومئذ بالقرآن . ولقد جعلت نصب عيني أوضح الإشارات وأجملها، وإلا فإن آثار نواحى هذه الثقافة بادية في كل شعره، ما قيل منه أول أمره، وما قيل منه آخره .

(هـ) أول شعر أبي تمام في مصر وخصائمه :

١ - مدحه عياش بن لهيعة : لم يلبث أبو تمام أن قال الشعر . وأول ما قاله منه على

رواية الصولى :

تَقِ جَمَحَاتِي لَسْتُ طَوَّعَ مُؤْنِي وَلَيْسَ جَنِينِي إِنْ عَذَلْتِ بِمُصْحِي
فَلَمْ تَوْقِدِي سُخْطَا عَلَى مَنَصِّل وَلَمْ تَسْزَلِي عَتَا بِسَاحَةِ مَعْتَبِ
رَضِيَتْ الْهَوَى وَالشُّوقَ خِذْنَا وَصَاحِبَا فَإِنْ أَنْتِ لَمْ تَرْضَى بِذَلِكَ فَأَغْضَبِي
يَصْرَفُ حَالَاتِ الْفِرَاقِ مَصْرَفِي عَلَى صَعْبِ حَالَاتِ الْأُمَى وَمُقْلَبِي

(١) الزج : الحديدة أسفل الرمح . والدرع الحصدا . : الحكمة ، الضيقة الحلق . والمغول : سيف دقيق له قفا .

وفي القصيدة ميل إلى أسلوب الفن الجاهلي ، ففيها يقول :

وُخُوطِيَّةٌ شَمْسِيَّةٌ رَشَائِيَّةٌ مَهْفَهْفَةٌ أَعْلَى رَدَاحِ الْحَقِّبِ

ومنها :

مِنَ الْمَعْطِيَّاتِ الْحُسْنِ وَالْمُؤْتَيَّاتِ مُجَلِّبَةً أَوْ فَاضِلًا لَمْ تَجَلِّبِ

لَوْ أَنَّ أَمْرَأَ الْقَيْسِ بَنَ حُجْرٍ بَدَتْ لَهُ لَمَّا قَالَ مُرَّابِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ

ومنها :

إِذَا أَمَّهُ الْعَافُونَ أَلْفَوْا حِيَاضَهُ مِلَاءً وَأَلْفَوْا رَوْضَهُ غَيْرَ مُجْدِبِ

وهو في أول شعره يبوح بحاجة من خلجات نفسه ، وشعور لا أشك في أنه كان يشق له كثيرا ، فيقول للآئمة :

أَحَاوَلْتُ إِرْشَادِي فَعَقَلِي مَرَشَدِي أُمِّ اسْتَمْتِ تَأْدِيِي فَدَهْرِي مُؤَدِّي

هَمَّا أَظْلَمَا حَالِي ثُمَّتَ أَجْلِيَا ظَلَامَتُهُمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدِ أَشْيَبِ

إن جهاد الوحيد في مضطرب الحياة جهاد ثقيل مضمّن ، وخاصة إذا بدأه وغصنه رطب ، فإن هذا الكفاح مهما ينته بالنصر ، يترك في القلب كَلْماً دامياً أبداً ، فبسملة النصر تمزجها الذكرى بعبوس الألم ، وشعور صاحبهما بينهما فرح وقور شاك ، أو حزن هادئ مبتسم ، ولكم يطبع الكفاح الأول الحياة كلها بطابع أبدي . وإن في إشارة أبي تمام في عبارته هذه : "أُمِّ اسْتَمْتِ تَأْدِيِي فَدَهْرِي مُؤَدِّي" .

في إشارته هذه ، ما يلخص سيرته ، وكفاحه ، وحياته . وإنها لتذكر بالحكمة المعروفة :

من لم يؤدبه والداه أدبه الليل والنهار

وما أظن إلا أن أبا تمام ، يوم قال هذه العبارة ، كانت تتمثل له وراء كل لفظ من ألفاظها ، دنيا ساحرة ماثجة ، قد حُرِّم فيها المعونة من مُعِين ، والحنان من رَحِيم . ألم بهذا المعنى في قصيدة ليس الغرض منها الإلمام به ، فتر به ، عَجِلاً ، وتركه أشبه بالعبرة ماتكاد تسيل حتى يجففها صاحبها ، في خفاء وعجلة ، حتى لا يلحظ الناس ما به . وأغلب ما كان التعبير عما في النفس في الشعر العربي من هذا القبيل . وإن أبا تمام ليستعيد جأشه بغاة ، ويطرد تلك الذكرى المؤلمة ، أو هو يخلط عبوسها بسملة النصر ، والشعور بالفوز ، فيقول عن نفسه :

شَجَّأَ فِي حُلُوقِ الْحَادِثَاتِ مَشْرِقِ بِهِ عَزَمُهُ فِي التُّرَاهَاتِ مَغْرِبِ

كَأَنَّ لَهُ دِينَارًا عَلَى كُلِّ مَشْرِقٍ مِنْ الْأَرْضِ أَوْ نَارًا عَلَى كُلِّ مَغْرِبِ

ولكنه لا يلبث أن يعود إلى ما هرب منه حين يذكر ما ضيه، فهو في حاجة إلى معين، وإن يكن ذلك في شيء من الكبرياء، فترى حاجته تسفر وتتوارى وتصطنع العلل :

تركتُ حُطاما مَنكَب الدهر إذ نَوَى زِحاميَ لما أن جعلتُكَ مَنكَبِي
وما ضيقُ أَقطارِ البلادِ أَضافني إليك ولكن مذهبي فيك مذهبي
وأنت بمصرٍ غائبي ، وقرابتي بها وبنو الآباء فيها بنو أبي
ولا غرو أن وطأت أكَافَ مرتبي لِمَهملِ أَحفاضِي ورَفَهَت مَشْرَبِي
فقومت لي ما أعوج من قَصْد همتي وبيضت لي ما أسود من وجَه مَطْلَبِي

وفيه يقول له : إنني قصدتك مع أن بمصر قرابتي وبنى أبي من طي .

أما غزله في القصيدة فيبدؤه بخطاب عاذلته، التي تعذله في حبه، فيقول : إنه لن يطيعها، وليس يخاف سخطها، وإنما هو محب مدله، تتخذ الهوى خدنا وصاحبها، وهو ذو قلب مهيا للحب على ما به من أسي والم . ثم يختمه بوصف جسماني لمن أحبها، وأثر جمالها في القلب . ويقول إن هذه حاجتي، لا أرتيادك بالأذى تحلى إلا تبكرى تتأوى . وهو فيها لا يتحدث عن هجر، ولا نسمع كثيرا تلك النغمة الحزينة التي تغلب في غزله عامة، والظاهر أن ذلك راجع إلى أنه كان في مستهل أمره، ممتلئا أملًا .

وفيه البيتان اللذان قال فيهما إنه وإن كان لا يزال شابا أمرد فقد لحقه الشيب . ويرى التبريزي لهما أحد معنيين : الأول أن يكون قد شاب في حال المرد، لعظم ما لاقاه من الشدائد . والثاني أن يكون أراد أنه فتى في السن، وهو في العقل شيخ . وقد يكون التفسير الأخير أليق بأبي تمام يومئذ .

وأبو تمام في هذه القصيدة معنى بالبدیع ، ولكن اتجاهه إلى المعنوى منه أكثر من اتجاهه إلى اللفظي [فهو كثيرا ما يقصد الاستعارة ، والحجاز ، والتشبيه ، من أنواع البيان . فإذا جئنا إلى ما يطلق عليه البديع في الأزمنة المتأخرة، لم نجد به معنى باللفظي منه كثيرا، وإنما هو معنى بالمقابلة بين معنيين متضادين في البيت . بحمّاح وطوع ، والرضا والغضب ، ومجلبب وفاضل ، وتُبكرى وتتأوى، وأظلمها وأجلايا . وإن يكن فيها شيء من مراعاة الموسيقى اللفظية، وآتساق المقاطع ، وحفظ التناسب، كما في البيت :

بِخَيْبِلِ سَاجٍ مِنَ الطَّرِفِ أَحْوَرِ وَمَقْتَبَلِ صَافٍ مِنَ الثَنَرِ أَشْنَبِ

فكل كلمة في الشطر الأول تقابلها نظيرتها ومثيلتها في الشطر الثاني، بما يدل على قصد واعتماد لذلك .

(١) أحفاض : جمع حفص وهو الجمل الضعيف .

على أنها مع ذلك ليست بادية التكلف، وليست تضيق بها النفس. فأبو تمام يقصد إلى البديع في أول قصيدة من قصائده، وخاصة ما يمس المعنى منه، ولكنه لم تنهأ له بعد سعة الخيال وخصبه. وليس في القصيدة لفظ غريب، تنفر منه النفس أو السمع.

+

ولقد كانت هذه القصيدة بداية طيبة، فأعطاه عياش خمسة آلاف درهم، كما ينقل البحتري عن أبي تمام. ويستطيع الإنسان أن يصور لنفسه، مبلغ نشوة هذا الفتى الصغير الفقير، يملك خمسة آلاف درهم. ولا نعرف ماذا أراد بها، ولكننا نعرف أنه كان كريما مسرفا، كما رأينا في الحديث عن شخصيته. فلم يلبث أن بددها، ثم عاد إلى عياش يمدحه. وليس في ديوان أبي تمام، في مدح عياش، غير القصيدة السابقة، إلا قصيدة أخرى مطلعها:

أَحْيَا حُشَّاشَةَ قَلْبٍ كَانَ مَحْلُوسًا وَرَمَّ بِالصَّبْرِ عَقْلًا كَانَ مَالُوسًا^(١)
سَرَى رِداءَ الْهَوَى فِي حِينِ جِدَّتِهِ وَأَهْلًا لَهُ مِنْهُ مَسْرُوءًا وَمَلْبُوسًا
لَوْ تَشْهَدُنِي أَقَاسِي الدَّمْعِ مِنْهُمْ سِرًا وَاللَّيْلُ مُرْتَجَجُ الْأَبْوَابِ مَطْمُوسًا
أَسْتَنْبْتُ الْقَلْبَ مِنْ لَوَاعِثِهِ شَجَرًا مِنَ الْهَمُومِ فَأَجْتَنَّتْهَا الْوَسَاوِيسُ

وهذه القصيدة من الناحية الفنية لا تأتي بعد الأولى، من حيث القيمة الفنية، ولا بد أن يكون بين الأثنتين قصائد أخرى، ذهبت فيما ذهب من شعر أبي تمام. على أن ما يبدو في غزلها من الكتابة - وأبو تمام دائم الملاءمة بين روح غزله وبين ما يضطرب في نفسه - يجعلنا نقدر أنه كان في حاجة إلى المال.

٢ - معانته عياشا: لا تلبث العلاقة بين عياش وأبي تمام أن تترزع، ويفسر لنا صاحب العقد الفريد^(٢) سبب ذلك، بأن أبا تمام استسلف عياشا مائتي مثقال، فشاور فيه زوجته، فقالت له: "هو شاعر: يمدحك اليوم، ويهجوك غدا". فأعتل عليه، وأعتذر إليه، ولم يقض حاجته. ويظهر أن هذا الاعتلال قد استمر زمنا، فأخذ أبو تمام يعاتبه، محتفظا بمعنى المدح في عتابه، شاكا طول ما بقي ببابه، ففي قصيدة له أولها:

صَدَفَتْ لَهْيًا قَلْبِي الْمُسْتَهْتَرِ فَبَقِيْتُ نَهَبَ صَبَابَةٍ وَتَفَكَّرِ^(٣)

(١) ألس: اخلط عقله، وهو مالوس. (٢) سرى: خلع، ومسروء: مخلوع.
(٢) ج ١ ص ١٤٤ ط: الجمالية. (٤) الهيا: تصغير لهوى، من الهوى، بوزن ليل. والمستهر بالشيء، بصيغة المفعول: المولع به، لا يزال بما قبل فيه.

يقول :

الفطر والأضحى قد آنسلا ولي أمل بيباك صائم لم يفطر
حول ولم ينتج نذاك وإنما تتوقع الحبلى لتسعة أشهر
جش لي ببحر واحد أغرقك في مدح أجيش له بسبعة أبحر

فهو يذكر فيه بقاءه ببابه حولاً كاملاً، مرّ فيه عيدا الفطر والأضحى، وأمله صائم لم يفطر. ولا أظن أن أبا تمام قد بقي هذا الحول في انتظار مائتي مقال، ولكن في انتظار عطاء لا يعلم مقداره. فإذا أردنا أن نتعرف حال أبي تمام النفسية، وما توالى عليه من حس، وجدناه في هذه القصيدة في غزله. وقد قلت إن غزل أبي تمام تصوير لما في نفسه من هم، وهو حين يشكو يجعل مرآته الحب :

غرض الحوادث ما تزال مائة^(١) ترميه عن شرن بام حبوك^(٢)
سدكت به الأقدار حتى إنه لتكاد تفجؤه بما لم يقدر^(٣)
ما كع عن حرب الزمان ورميه بالصبر إلا أنه لم ينصر^(٣)
ما إن يزال بمحد حزم مقيل متوطئاً أعقاب رزق مدبر

أما عياش فقد بدأ يلقاه في امتعاض وتجهم :

فإذا جئت زائراً حجت وجه هك عني كآبة وبسور^(٤)
فطلق مع العناية إن ال بشر في أكثر الأمور بشير
إنما البشر روضة فإذا كا ن بيدل فروضة وغدير
وأقسم اللحظ بيننا إن في الله يظ لعنوان ما يجن الضمير

بعد ذلك تنور نفسه لكثرة ما رجاه، ويحس ذلة السؤال جارحة أليمة فيقول :

ذل السؤال شجاً في الخلق معترض من دونه شرق من تحتيه جرض
ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت من ماء وجهي إذا أفينته عوض

وهو ينسب جفاء عياش له إلى قوم يسعون به عنده :

أظن عندك أقواماً وأحسبهم لم يأتلوا في ما أعدوا وما ركضوا
يرمونني بعيون حشوها شزر نواطق عن قلوب حشوها مرض

(١) الشرن : البعد . وأم حبوك : الداهية . (٢) سدك به كفرح : لزمه ، والسدك كفرح المولع بالشئ .

(٣) كع : يكع ويكع : جبن وضعف . (٤) البسور : العيوس والنقطيب .

لولا صيانته عِرضي وانتظار غيدي والكظم حتم على الدهر مفترض
لما فككت رقاب الشعر عن فكري ولا رقابهم إلا وهم حِصص
أصبحت يرمي نباهاتي بخاملة من كله لنبالى كلها غرض

وفي البيت الأخير إشارة إلى من يرميه بخاملة^١ ويظهر أن خاملة هذه وصف لموصوف محذوف، لأنه مفهوم، أي قصيدة خاملة^٢ وأظنه يشير بهذا إلى شاعر هاجاه في مصر، هو يوسف السراج، يذكر ابن رشيق في عمدته، أنه أخفه في الهجاء^(١).

٣ — هجاؤه عياشا : ثم عيل صبره ، وأنقطع ذلك الأمل الذي كان يمسكه عن هجائه ، فهجا عياشا هجاء من قد جرح وشعر بحمارة جرحه ، وتراه وهو يهجو ولا ينكر ما كان فيه أيام كان يمدحه ويرجوه . فهو صريح ، وهو في حاجة إلى المال تبين في هجائه :

النار والعار والمكروه والعطب والقتل والصُّلب والمرُّانُ والحشبُ
أحلى وأعذب من سيب تجود به ولن تجود به يا كَلْبُ يا كَلْبُ

وهو يأخذ على نفسه مدحه لهم ، ولجأته في ذلك :

لحاجة بي فيكم ليس يشبهها إلا لاجتكم في أنكم عَرَب
أشكىتموني فلما أن شكوتكم غضبتُم دام ذاك السخط والغضب

أما هجاؤه له ، فهو أشبه بالشتائم الساذجة ، منه بالهجاء الحقيقي . ويظهر أنه استفد من الجهد في تهديده بالهجاء ، أكثر مما بذل في هجائه حقا . وهو ينذر في كل قصيدة بما سينكل به :

لَسَوَدَنْ بقاعَ وجهك منطقي أضغافَ ما سودت وجه قصيدي
ولأنشهرت عليك سُنع أو ايد يُحسِن أسيافاً وهن قصائد
فيها لأعناق اللثام جوامع تبق ، وأعناق الكرام قلائد
يلزمن عرض قفاك وسم خراية لم يخزها بأبي عيينة خالد

وليس أبو تمام بالذي يغضب فيستغرق الغضب كل نفسه ، ولكنه يغضب فيحزن ويحس الخيبة ، ويتأمل في حاله ، وما وصلت إليه ، فيبكي نفسه وحظه في ساعة يشتم غريمه . وإنك لتحس بليته في آماله في عياش في قصيدته :

فما لك بالغريب يدٌ ولكن تعاطيك الغريب من الغريب
فلو نبش المقابر عن زهير لصرح بالويل وبالنجيب
متى كانت معانيه عيالا على تفسير بقراط الطيب
فكيف ولم يزل للشعر ماء يرف عليه ريحان القلوب

ويقول الجرجاني بعد هذا : نخبرنى : هل تعرف شعرا أحوج إلى تفسير بقراط، ونأويل أرسطو، من قوله :

جَهْمِيَّةُ الأوصاف إلا أنهم قد لقبوها جواهر الأشياء
وقوله :

يوم أفاض جوى ، أفاض تعزيا خاض الهوى بحرى حياه المزيد
وأى شعر أقل ماء، وأبعد من أن يرف عليه ريحان القلوب من قوله :

خَشِنَتْ عليه أخت بنى الحُشَيْن وأنجح فيك قول العاذلَيْن
ألم يقنعك فيه الحجر حتى بككت لقلبه هجرا بين

فهل رأيت أغث من بككت فى بيت نسيب ؟ ثم يمضى فى ذلك .

ومن إيضاح أحد طرفى المقارنة، كما بينه الجرجاني، نستطيع أن نعرف الآخر، لاسيما بعد أن ذكر أبو تمام عن السراج أصطناعه الغريب أولا، وتعمقه المعانى ثانيا .

ولا إخالنا نختلف فى أن هذا هو مذهب أبى تمام، ولا ينقصه إلا البديع . وكأنى بالجرجاني كان يحوم حول هذا المعنى ، الذى تنشئه فى الذهن الصلة بين مذهب السراج ، ومذهب أبى تمام، وتقويه نساء أبى تمام المصرية . ذلك المعنى ، هو أن أبا تمام أخذ عنه مذهبه فى الشعر، وتأثر به .

٦ — تأثر أبى تمام بمذهب السراج : كان اشتباك أبى تمام فى مصر مع السراج اشتباك الخصومة والمهاجاة ، طريقا من طرق انفعاله بشعره الذى يقذفه به، وداعيا إلى نظر أبى تمام فيه، نظر المتأمل ، ليرى وجوه حسنه ونواحى قبحه . فكان ذلك الشعر درسا من الدروس التى تلقاها فى مصر، أثر فيه ، ووجه شعره ، لاسيما وأن أبا تمام كان يومئذ حدثا غض الإهاب ، فى دور الإعداد والتقبل للوثرات ، والأنطباع بها أنطبعا لازمه حتى آخر أيامه .

وإن أحدنا ليتأثر بخصمه أحيانا أكثر مما يتأثر بأقرب الناس إليه . كان أبو تمام كثير العيب لغريب السراج ومعانيه ، فلم يلبث أن تأثر بهما ، وأصبحا من أخص خصائص مذهب الشعري ، كما بينت ذلك في مكان آخر . ولست أشك بعد هذا في أن نفس أبي تمام كانت ذات استعداد خاص لتقبل هذا المذهب ، وإنما أتحدث الآن عن المؤثرات الموجهة لطبيعة فيها خصب وفيها استعداد .



وكما تستطيع أن تجد آثار عناصر ثقافة أبي تمام ، التي تحدثت عنها سابقا ، في شعره المصري تستطيع أن تجد مذهب في طلب المعاني والبدع ، وإلمامه بالغريب من اللفظ ، والإكثار من الاستعارة والمجاز . وفرق ما بين هذه هنا ، وبينها في العراق فرق ما بين الزمنين .



ويظهر أن هجاء أبي تمام للسراج لم يبق لنا كله ؛ فليس في ديوانه سوى ما ذكرت ، إلا مقطوعة كلها قذف منكر ، لا يفيدنا في موضوعنا كثيرا . إلا أن فيها بيتا يكشف لنا عن ناحية من نواحي حياة السراج هذا ، وقد ذكر أبو تمام مثله في مقطوعته السابقة . أما البيت فهو :

ما إن سمعتُ ولا أرايَ سامما حتى الماتِ بشاعِرِ سراج

ولقد استظهرت من قبل أنه مدح المطالب بن عبد الله الخزاعي في هذه الفترة وهجاء ؛ ولكن ليس في ديوانه شيء من مدائحه فيه ، ولا أهاجيه ، إلا بيتين ذكرتهما من قبل^(١) . أما خصومته مع السراج ، فكانت خصومة أصحاب العمل الواحد ، تقوم بينهم المنافسة ، فيتنابذان . وقد حكم ابن رشيق للسراج أنه أفهم أبا تمام هجاء ، وأن عظمة أبي تمام الشعرية لم تنفذه من الهزيمة أمام الشاعر المصري في الهجاء .

٧ — تنقلات أبي تمام في مصر وما قال فيها من شعره : ويظهر أن أبا تمام تنقل بين أنحاء مصر ، فسمعناه يذكر رسوم دار بالإسكندرية . وأقام فيها زمنا طويلا يذكر منه خمس سنين في قصيدة له ، قالها يصف فيها تقشير الرزق عليه بمصر ، ولا نعلم أقالها حين أراد الخروج أو وهو خارج . وأغلب ما هناك أنه لم يمض بين قوله إياها وخروجه كثير . ومطلعها :

أصيب بجحيتٍ كأيها مَقْتَل العذيل تكن عوضا إن عَفُوكَ مِنَ النَّبيل

وهناك قصيدة أخرى ، ليست في ديوانه المطبوع بالقاهرة ، ولكنها مذكورة في الجزء الأول من طبعة بيروتية ومطلعهما :

أَطْلَالَ بِنْتُ الْعَامِرِ بِمَنْسَجٍ غَنَاؤُكَ مَحْظُورٌ عَلَى الدِّيفِ الشَّجِيِّ
ويظهر أن الأخيرة قيلت قبل الأولى من حيث الزمن . وفي القصيدة الثانية ما يبين أن أبا تمام أتى مصر يطلب الغنى ، يقول منها :

وطال قُطُونِي أَرْضَ مِصْرَ لِحَاجَةٍ يُقَالُ لَهَا أَقْبَحُ يَهَاتِي وَأَسْمَجُ
أَقْلَبُ فِي أَقْطَارِهَا الطَّرْفَ كِي أَرَى وَلَسْتُ بِرَأْيِ ذَاكَ عِصْمَةَ مُلْتَجِي
فَقَنَعَنِي يَا بَيْي وَأَعْلَمُ أَنَّنِي مَقُودٌ بِجَبَلٍ لِلْقَادِرِ مُدْمَجُ
وَنَحْنُ أَنَاسُ نَذْخِرُ الصَّبْرَ لِلْأَسَى وَنَهْتَاجُ لِلْيَوْمِ الْعَبَوسِ الْمَهْجِجِ
عَهْدُنَا إِلَى الْبَيْضِ الْمَأْتِرِ لَا تُرَى مَسْأَلَةٌ إِلَّا لِضَرْبِ مَتَوَجِ
تَرَى النَّاسَ نِسْنَسَا إِذَا الْحَرْبُ جَرَبَتْ شَبَا طَبِيٍّ وَالْأَشْعَرِينَ وَمَذْجِجِ

وإن الإنسان ليستطيع أن يدرك مقدار هدوء نفس أبي تمام مع يأسه حين يسمع قوله :

فَقَنَعَنِي يَا بَيْي وَأَعْلَمُ أَنَّنِي مَقُودٌ بِجَبَلٍ لِلْقَادِرِ مُدْمَجِ

فهذه القناعة باليأس عند خيبة الأمل ، وذلك الاعتصام بالمقادير في وجه دنيا عابسة ، يقابلها عند المتنبي ، يوم خرج من مصر في مثل هذه الخيبة أو ما هو أقل ، ذلك الضجيج والعجيج ، والسباب وخط الرأس بالجدران ، والهتاف بالأرض أن تنشق ، وبالسما أن تساقط كسفا فوق رؤوس المصريين ومصرهم ، لأنهم لم يملكوه عليهم .

أما القصيدة الأخرى التي قالها غالبا عند خروجه من مصر فتبين عن حزن شديد ، حرك بنفسه الشوق إلى أهله وبلده ، وكان قد مضى عليه يوم قالها خمس سنوات مقيما في مصر ، ومنها :

سَقَى الرَّائِحُ الْغَادِي الْمَهْجَرُ بِلَدَةً سَقَنَتْنِي أَنْفَاسُ الصَّبَابَةِ وَالْحَبْلِ
سَحَابٌ إِذَا الْغَتَّ عَلَى خَلْفِهِ الصَّبَا يَدَا قَالَتِ الدُّنْيَا أَنِّي قَاتِلُ الْمُحَلِّ
إِذَا مَا أَرْتَدَى بِالْبَرْقِ لَمْ يَزَلِ النَّدَى لَهُ تَبَعًا أَوْ يَرْتَدِي الرُّوضُ بِالْبَقْلِ
إِذَا أَنْتَشَرَتْ أَعْلَامُهُ حَوْلَهُ أَنْطَوَتْ بَطُونُ الثَّرَى مِنْهُ وَشَيْكََا عَلَى حَمَلِ

(١) النسياس بفتح نونه الأولى وكسرها : جنس من الخلق ، ينب أحدهم على رجل واحدة . وقالوا : هم خلق على سورة الناس ولكن خالقهم في أشياء ، وليسوا منهم .

ترى الأرض تهتر أرتياحا لوقعه
بفساد دمشقا كلها جود أهلها
سقامهم كما أسقامهم في لظى ألوعى
فلم يبق في أرض البقاعين بقعة
بنفسى أرض الشام لا أئمن الحى
كما أرتاحت البكر الهدى إلى البعل^(١)
بأنفسهم عند الكريهة والبذل
يبيض صفيح الهند والسمر الذئيل
وجاد قرى الجولان بالمسيل المظيل
ولا أيسر الدهنا ولا أوسط الرمل

ومنها في وصف حاله ، وما كان يعمل في نفسه :

أنحسة أحوال مضت ليغيبه
توأتى وشيك الشجع عنه ووكت
شهران بل بومان ثكل من الثكل
به عز مات أوقفته على رجل

* *

لقد طلعت في وجه مصر بوجهية
وساوس آمالي ومذهب همة
وسورة علم لم تسدد فأصبحت
نابت فلا مالا حويث ولم أقم
بخلت على عرضي بما فيه صوته
بلا طالع سعد ولا طائر سهل^(٢)
مخممة بين المطية والرحيل
وما يتمارى أنها سورة الجهل
فامتع إذ جعت بالمال والأهل
رجاء آجتاء الجود من شجر البخل

ثم هو يصب جام غضبه على من قصده في مصر فلم ينله بغيته :

عصيت شبا حزمي لطاعة جيرة
وأبسط من وجهي الذي لو بذلته
دعني إلى ان أفتح القفل بالقفل
إلى الأرض من نعلي لما نقبت نعلي

ومنها :

وكان ورائي من صيرمة طيء
فلم يك ما جرعت نفسي من الأسى
ومعني ووهب عن أمامي ما يسلي
ولم يك ما جرعت قومي من الثكل

٨ - أرتحاله عن مصر : نزل أبو تمام مصر طفلا لم ينفذ يطلب الغنى ، فوهبت له حلما ، وغمرت قلبه نورا ، وفتحت عينيه على دنيا جديدة ، وأشاعت فيه أملا واسعا ، ولكنها لم تهب له من المال ما كان يطمح إليه .

(٢) الضمير في طلعت ، يعود على النوق .

(١) الهدى كفى : المروس .

قدنفت به إلى الدنيا بعد أن أعدته أحسن الإعداد وزودته بسراج يستعين به على اقتحام الدهر وأحداثه ، ولكنه كان ممدود اليدين ، يريد أن ينال بهما جميعا ، فلما لم يجد بإحدهما ما طلب ، ألماه ذلك عما باليد الأخرى ، فأفقتل غاضبا في شيء من يأس الشباب ولكنه لم يكن نذلا ، فلم يخلط بين الوطن الذي آواه ، وبين الرجل الذي ضن عليه .

لم يخرج أبو تمام من مصر إلا بعد أن استضاءت نفسه بذلك النور الذي يضاعف الحسن بالحياة ، فيزيد من ظلمتها ، كما يفجر من لآلئها ، ويجعلها مسرحا للاقتران الرائع بين عبادة الحياة والنعمة عليها ، ويدفع إلى قوله :

أحاوليت إرشادي فعقلي مُرَشِدِي أَمِ اسْتَمَيْتَ تَأْدِيبِي فَدهِرِي مُؤَدِّي
هَمَّ أَظْلَمَا حَالِي ثُمَّتْ أَجْلِيَا ظَلَامَتُهُمَا عَنْ وَجْهِ أَمْرَدٍ أَشْيَبِ

٤ - أبو تمام في الشام

عاد أبو تمام إلى الشام من مصر شاعرا . وقد نزل الشام بعد عودته هذه من مصر عدة مرات سنتحدث عنها على حسب أزمنتها .

(١) شعره في أبي المغيث : وفي الشام يمدح أبو تمام طائفة من الناس ، ولكن هذا المدح يحى أيضا في أزمته متفرقة . وأظهر من مدحه أبو تمام في الشام هذه المرة ، هو أبو المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي . ومدائح أبي تمام وهجاؤه فيه يفهم من ثناياها أنها قيلت في زمنين متباعدين : الأول منهما قبل أن يرحل أبو تمام إلى العراق ، وقبل أن يلقى نجاحا كبيرا . فنسمعه في قصيدة يقول لمدوحه أبي المغيث :

وَعَدَا سَتَعْلَمُ كَيْفَ غَبَّ قَصَائِدِي إِنِّي مِلَنِي بِهَمَمِي إِلَى بَغْدَادِ

فلم تكن قد مالت همته به يوم قالها إلى بغداد بعد .

وأغلب الأمر أن أبا تمام ترك مصر إلى الشام سنة ٢٠٣ ، ليزور أهله وأحبائه ، وكان قد طال أمد أترافه عنهم وشوقه إليهم ، كما يبدو ذلك في قصيدته التي تحدثت عنها ، وليتحدث إلى جيرة ينخيل إلى أنهم كانوا ذوى أثر بالغ في حياته ، يقول عنهم إنهم هم الذين دفعوه إلى نزول مصر :

عَصَيْتُ شَبَابِي لِطَاعَةِ جِيرَةٍ دَعَانِي إِلَى أَنْ أَقْتَحَ الْقُفْلَ بِالْقُفْلِ

مدحه : وقصيدة أبي تمام في أبي المغيث :

لَطَمَحْتَ فِي الْإِبْرَاقِ وَالْإِرْعَادِ وَغَدَا عَلَى سَبِيلِ لَوْمِكَ غَادِ

هي واحدة القصائد ، التي يستطيع الباحث في أطمئنان أن يقطع أن أبا تمام قالها قبل رحيله إلى العراق فيه ، لقوله السابق فيها .

ولكنه يحدثه فيها عن شعر سبق له فيه ، فيقول :

سَلِّ مُخْبِرَاتِ الشَّعْرِ عَنِّي هَلْ بَلَّتْ فِي قَدْحِ نَارِ الْمَجِيدِ مِثْلَ زِنَادِي
لَمْ تَبَقْ حَلْبَةً مِنْطِقِي إِلَّا وَقَدْ سَبَقَتْ سَوَابِقَهَا إِلَيْكَ جِيَادِي
أَبْقَيْنَ فِي أَعْنَاقِ جُودِكَ جَوْهَرَا أَبْقَى مِنَ الْأَطْوَاقِ فِي الْأَجَادِ
وَعَدَا سَتَعْلَمُ كَيْفَ غَبَّ مَدَائِحِي إِنْ مَلَأَ بِي هِمَمِي إِلَى بَغْدَادِ

وهو يصف فيها رحلته إلى ممدوحه بما يوحى أنه قصده من مكان غير دمشق ، التي كان يقيم فيها أبو المغيث وما أظنه كان إلا مصر لقرب نزوحه عنها .

يقول ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق : "ذكره أبو الحسن الرازي في تسمية أمراء دمشق ، في خلافة بني العباس فقال : أمراء دمشق من قبل المعتصم : موسى بن إبراهيم بن سابق الرافقي أبو المغيث المرة الأولى ، ثم أبو المغيث للمرة الثانية ، بعد أن ولي بعده أبو الصالحات ، ثم دينار بن عبد الله بن أحمد بن محمد . وعزل وأعيد ، ومات المعتصم وأبو المغيث على دمشق " ومن هذا نرى أن أبا تمام مدح أبا المغيث هذه المرة قبل أن يكون أبو المغيث واليا على دمشق لأن أولى ولايته عليها كانت أيام المعتصم ، والمعتصم لم يكن خليفة قبل سنة ٢١٨ هـ .

ومن قصائده التي يطلب أن يكون قالها فيه هذه المرة قصيدة مطلعها :

صَرُفَ النَّوَى لَيْسَ بِالْمَيْكِيثِ يَنْبِثُ مَا لَيْسَ بِالنَّبِيثِ
هَبْتُ لِأَحْبَابِنَا رِيَّاحَ غَيْرِ سَوَاهٍ وَلَا دُّثُوثِ

ومنها يستعجل عطاءه :

أَنْكِدْ بِأَرِي النَّوَالِ مَا لَمْ يَخْلُ مِنْ الْعُشْبِ وَاللَّوْبِثِ
مَا أَبْجُودُ بِالْجُودِ أَوْ تَرَاهُ لَيْسَ بِتَزْرِ وَلَا لَيْبِثِ
طَالَ الْمَدَى فَأَهْ تَرَكَ عُثْبُ مِنْ صَادِقِ السُّودِ مُسْتَرِثِ

خُذْهَا فَمَا نَالَهَا بِنَقِصٍ مَوْتُ جَرِيرٍ وَلَا الْبُعِثِ
وَكُنْ كَرِيمًا تَجِدُ كَرِيمًا فِي مَدْحِهِ يَا أَبَا الْمَغِيثِ

وثالثة يغلب فيها روح مثل هذا الروح المنبث في السابقة وهي :

وَتَسَابِكُ لَهَا إِغْرِيصُ وَلَا لِي تُؤْمُ وَبَرْقٌ وَمِیْضُ

ومنها :

أَنَارَتْنِي الْأَبْصَامُ بِالنَّظَرِ الشَّرِّ رِ وَكَانَتْ وَطَرُفُهَا لِي غَضِيضُ
كَيْفَ يُمَسِّي بِرَأْسِ عَلِيَاءٍ مُضْجُ وَجَنَاحُ السَّمَوِّ مِنْهُ مَهِيضُ
هَمَّةٌ تَطْطَحُ النُّجُومَ وَجَدُّ أَلْفٌ لِلْحَضِيضِ فَهُوَ حَضِيضُ

ثم يختتمها باستجداء واستعجال للعطاء ، وذكر لقصائد قالها قبل في أبي المغيث :

كُنْ مَا بَا أَبَا الْمَغِيثِ فَمَا زِلْ بَتَ مَا بَا يَاوِي إِلَيْكَ الْجَرِيضُ
كُلُّ يَوْمٍ نَوْعٌ يَقْقِيهِ نَوْعٌ وَعَرُوضٌ يَتْلُوهُ فَيْكَ عَرُوضُ
وَقَوَائِفٌ قَدْ ضُجَّ مِنْ طَوِيلٍ مَا أَسْتَعِدُّ حِلَّ فِيهَا الْمَرْفُوعُ وَالْمَخْفُوضُ
الْمَسِيحُ الْجَزِيلُ وَالشُّكْرُ وَالصَّدِّ قِ وَمُرُّ الْعِتَابِ وَالتَّخْرِیضُ
وَحَيَاةُ الْقَرِيضِ إِحْيَاؤُكَ الْجَوْ دِ فَإِنْ مَاتَ الْجُودُ مَاتَ الْقَرِيضُ
كُنْ طَوِيلَ النَّدَى عَرِيضًا فَقَدْ سَا رَ شَأْنِي فَيْكَ الطَّوِيلُ الْعَرِيضُ

ومنها :

يَا عَجِبُ الْإِحْسَانِ فِي زَمَنِ أَحَدٍ سَجَّ فِيهِ الْإِحْسَانُ وَهُوَ بَغِيضُ

وإنما دعائي إلى جمل هذه الثلاث نتاج هذه الفترة من قترتي اتصال أبي تمام بأبي المغيث ، شيوع ذلك الروح من الاستجداء لئال فيها جميعا . وقد كانت هذه طلبته أول أمره معه . أما مبتغاه في المرة الثانية فلم يكن المال ، وإنما كان الوظيفة كما سنرى بعد ، وذلك في زمن متأخر ، بعد أن أترى أبو تمام وصار صيته ، ومل كثرة الانتقال فأخذ يتجه إلى نوع جديد من الحياة فيه استقرار وهدوء . يقول له في قصيدة قالها فيه سنة ٢٢٧ :

أَعْطِ الرِّيَاسَةَ مِنْ يَدِيكَ فَلَمْ تَزَلْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُدْعَى الرَّئِيسَ رَئِيسًا

فهو يريد رياسة . وهذه الإشارة إلى رياسة أبي المغيث : ” فلم تزل من قبل أن تدعى الرئيس رئيسا ” إنما هي إلى الفترة الأولى التي سبق الحديث عنها ، ولم يكن فيها أبو المغيث قد ولى بعد أمر دمشق . أما كيف عرفت أن هذه السببية قُبلت سنة ٢٢٧ ، فذلك ما سألتحدث عنه في حينه .

عتابه : لم يلبث أن ثار بين أبي تمام وأبي المغيث ما تار من قبل بينه وبين عياش بن طيبة الحضرمي في مصر . فقد كان أبو تمام شديد الطمع ، واسع الآمال ، كثير الطلب لئال ، مما قد لا تسع له يد رجل كأبي المغيث .

رحلته عن الشام : وكان كما رأينا كثير الإلحاح في قصائده بالطلب ، يتبع القصيدة بالقصيدة ، فأعطاه أبو المغيث حتى إذا زاد طلبه ، قصر في شأنه ، فأخذت مدائحُه فيه تأخذ نعمة من المتن عليه بها ، والإنذار بأنه سيتركه إلى بغداد . ولكن ذلك لم يخلق في أبي المغيث القدرة على إرضاء مطامع أبي تمام ، فاغتاظ ورحل عنه أخذاً في عتابه . ولم اسمه عتاباً إلا لأنه موضوع في باب العتاب في الديوان ، أما هو فهجاء مخ ملىء بالحق :

وإني لأستحيي بقيتي أن يرى	إشكى في شيءٍ عليه دليل
وما زال لي علمٌ إذا ما نصصته	كثيرٌ بأن الظرف فيك قليل
وإن يك عددي عن سواك إليك بي	رحلٌ لي في الأرض عنك رحيل
أبى الحزم لي مكا بدار مضية	وعوس أبوها شذقم وجديل
أبعد التي ما بعدها متلوم	عليك الحُرقلت أنت عجول
سأقطع أرسان العتاب بمنطقي	قصير ، عناء الفكر فيه طويل
وإن أمراء ضنت بداه على أمري	ينيل يد من غيره لبيخل

ومن الأبيات يظهر كيف رحل عنه أبو تمام غاضباً ساخطاً ، نخاف موسى هجاءه ، فأرسل إليه يسترضيه ، أو قال عنه : إنه تعجل الرحيل قبل أن يمكننا من إعطائه حاجته . فإرد عليه أبو تمام بقوله : أبعد كل هذا التمكث والانتظار ، تقول إنني تعجلت ؟ لقد أبى لي البقاء عند من يضيعني حزمي ، والعيس الأصلية التي تحملني إلى حيث أجد رزقي . وهو يتهمة بقلّة الظرف ويقول له إن محاولتك حبسي عن الرحيل إلى غيرك من الأجواد ، بخل يضاف إلى بخلك .

وكان هذا بدء الهجاء . وما حال بينه وبين الأفحاش فيه إلا قربه من صاحبه ، وخوفه بطشه ، حتى إذا أبعد عنه أخذ في هجائه ، فلم يجد بداً من أن يكذب نفسه في مدحه له :

عجبا لقوم يسمعون مدائحي	لك لم يقولوا : قم فانت مصاب
نَبَزُوا بِكَ كَذَابٍ مُسَيَّلَةٍ فَقَدْ	وَهُمُوا وَجَارُوا ، بَلْ أَنَا الْكَذَاب
وهتكت ديني فاستترت بتوبة	فأنا المقر بذنبه التَّوَاب

وفيهما ما يدل على أنه كان حجبه عنه :

هَبْ مَنْ لَهْ شَيْءٌ يَرِيدُ حِجَابَهُ مَا بَالُ لَا شَيْءٍ عَلَيْهِ حِجَابُ
مَا إِنِّي سَمِعْتُ وَلَا أَرَانِي سَامِعًا أَبَدًا يَصْحَرَاءُ عَلَيْهَا بَابُ

وهو في قصيدة أخرى يتحدث عن هذا الحجاب :

لَا تُدْهِشْنِي بِالْحِجَابِ فَإِنِّي نَدَسُ الْبَيْدِيَّةِ عَارِفٌ بِمُوَارِبِي^(١)
لَا تَكْلِفَنَّ أَرْضُ وَجْهِكَ صَخْرَةً فِي غَيْرِ مَنْفَعَةٍ مُؤَوَّنَةً حَاجِبِ

ذهب عنه أبو تمام بضرب في الأرض يشتمه ويهجوّه . فأراد أن يحتال في إرجاعه ، فلم يرجع كما رأينا من قبل ، ولما هجاه صرح بتهديده بالموت ، فرد أبو تمام على ذلك أقبح رد .

وله في هجائه قطعة يصدق حين يصف نفسه فيها بنخفة الروح :

حَلَقَ اللَّهُ لِحْيَةَ لَكَ لَوْ تُحْ لَمَقَ لَمْ يُذِرْ مَا غَلَاءُ الْمُسُوحِ
وَذَرَاها فِي الرِّيحِ إِنْ كُنْتَ تَرْجُو سِيرَ شَعْرِي فِي نَعْتِهَا بِالرِّيحِ

ولقد أقام أبو تمام عنده شهورا يقول :

مَا خَلَّفْتُ حِوَاءَ أَحْمَقٍ لِحْيَةً مِنْ سَائِلٍ يَرْجُو الْغِنَى مِنْ سَائِلِ
ذَلِكَ الَّذِي أَحْصَى الشُّهُورَ وَعَدَّهَا طَمَعًا لِيَنْتَجِعَ سَقْبَةً مِنْ حَائِلِ

ويظهر أن خيبة الأمل المريع ، هي التي كانت تدفع بأبي تمام إلى هذا الغضب ، الذي كان يزلزل بنفسه فيدفعه إلى سب نفسه في هجائه . فقد كان في سن يتحرق معها إلى تحقيق مطامعه ، وكان ثقل وقع الخيبة عليه عظيما . وإن حسه بذلك ليدو واضحا في استهلال هجاء له في أبي المغيث :

أَنْضَيْتُ فِي هَذَا الْأَنَامِ تَجَارِي وَبَلَوْتُهُمْ بِتَصَفِّحَاتٍ مَذَاهِي
وَذَمَلْتُ فِي الْأَيَّامِ حَتَّى أَصَحَّتُ شَطْنُ سَنَامِي وَأَنْتَحْتُ فِي غَارِي
مَتَجَشِّمًا سُبُلَ الْمَطَامِعِ طَالِبَا مِنْهَا وَفِيهَا شَاوَ رِزْقِ هَارِي
أَمْرَانِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ فَاعْلَمُوا طَوْقَانِ فِي عُقِّي الْقَضَاءِ الْغَالِبِ

وفيهما يضع دستور الخلق في هجائه ، ومدحه ، وصلاته بالناس ، وبه يلخص سيرة الحياة في عصره :

لِيَنْزِلَ عَدُوٌّ مِنْ عَدُوِّ إِنَّمَا يَغْفُو وَيَصْفَحُ صَاحِبٌ عَنْ صَاحِبِ

(١) الندس : الفهم كالندس كعقد . والمواربة : المداواة والمخاطلة .

مميزات فنه في هذا العهد : كانت هذه خاتمة طور من أطوار حياة أبي تمام ، بدأ بعده طوراً جديداً في العراق . ولقد رأيناه من قبل ينتوى الذهاب إليها ، آملاً الخطوة بتحقيق آماله ومطامعه .

وهذا الطور الذي ختمناه يمتاز فيه شعره عن سابق شعره في مصر ، بتهديب ناشئ عن طول الممارسة . كما أن فيه وصف الرحلة إلى ممدوحه ، وهو ما تخلو منه قصائده المصرية . وتجده فيه كل عناصر ثقافته ، التي أشرت إليها من قبل . إلا أنها هنا أخذت لتتضح وتبين ، تبعاً لمطاوعة الشعر له بكثرة معالجته فتجد في قصيدته :

لَطْمَحَتْ فِي الْإِبْرَاقِ وَالْأَرْعَادِ وَغَدَا عَلَى بَسِيلِ لَوَيْمِكَ غَادِ
أثر التاريخ والأخبار :

كَمْ وَقَعَةٍ لِي فِي الْهَوَى مَشْهُورَةٍ مَا كُنْتُ فِيهَا الْحَارِثَ بْنَ عَبَادِ
وترى أثر القرآن وإن كان خفيفاً ، فلم يكن أبو تمام قد وجد بعد الشجاعة الكافية لاستغلاله :
عَدْنَا بِمُوسَى مِنْ زَمَانٍ أَنْشَرْتُ سَطَوَاتُهُ فِرْعَوْنَ ذَا الْأَوْتَادِ
ومنها :

لَا تُتَكَبَّرْ أَنْ يَشْتَكِيَ ثِقَلِ الْهَوَى بَدَنِي فَمَا أَنَا مِنْ بَقِيَّةِ عَادِ
ومنها :

مَا لِلْخَطُوبِ طَفْتُ عَلَى كَأَنَّمَا جِهَاتِ بَارِتٍ نَدَاكَ بِالْمِرْصَادِ
ويتضح أثر الغريب في قصيدته :

صَرَفُ النَّوَى لَيْسَ بِالْمَكِيبِ يَنْبِثُ مَا لَيْسَ بِالنَّبِيبِ
ولكنه الغريب ، الرائق في السمع ، الموسيقى الرنين .

٥ - أبو تمام على أطراف العراق

(١) مع محمد بن حسان الضبي في الرقة البيضاء : يقول أبو تمام في قصيدة من قصائده في ابن حسان هذا :

لَوْلَا ابْنُ حَسَّانَ الْمَرْجِيُّ لَمْ يَكُنْ بِالرَّقَّةِ الْبَيْضَاءِ لِي مَلُومٌ

يقول ياقوت في الرقة : ” بفتح أوله وثانيه وتشديده ... مدينة على الفرات بينها وبين حران ثلاثة أيام . معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرق ... ويقال لها الرقة البيضاء ” .

ولم يكن أبو تمام قد ذهب حتى أيام مدائحه في آبن حسان إلى بغداد فيقول له من قصيدة :

بالشام أهل ، وبغداد الهوى ، وأنا بالرقتين ، وبالفسطاط إخواني
ولا أظن النوى ترضى بما صنعت حتى تشافه بي أقصى خراسان
خلقت بالأفق الغربي لي سكا قد كان عيشي به حلوا بجلوان

وفي الديوان بالرقتين والصحيح ما ذكرته . يقول ياقوت . "والرقتان الرقة والرافقة" . ويقول في مكان آخر : "الرافقة بلد متصل البناء بالرقة ، وهما على ضفة الفرات ، وبينهما مقدار ثلاثمائة ذراع" . والقصيدة تمثل حالة أبي تمام بعد تركه الشام . فهو مفرق النفس بين تلك البلاد التي زلها جميعا . يذكر أهله بالشام ، ويحن إلى إخوانه بالفسطاط ، ويحترق على عيش كان حلوا بجلوان . ولأول مرة نستطيع أن نقول عن أبي تمام إنه كان يومئذ قد تزوج ، وإن زواجه هذا كان في مصر فقد سمعناه من قبل يتحدث عن رسم دار بالاسكندرية وهو الآن يقول :

خلقت بالأفق الغربي لي سكا قد كان عيشي به حلوا بجلوان
غصن من البان مهتر على قس يهتر مثل أهتزاز الغصن بالبان
أفنت من بعده فيض الدموع كما أفنت في هجره صبرى وسلوانى
وليس يعرف كنه الوصل صاحبه حتى يفادى بنائى أو بهجران

(ب) طابع شعره : ونعمة شعره خزينة ، تحمل أثرا من تكرار فشله الماضى ، وهذا الشوق

الجديد ، الصادر عن فراق من نوع جديد . وكان لا زال يقاسى شيئا من حرب الأيام وما لى في أول أمره ، ولكنه يروض نفسه فيها على هذا الفراق ، تحقيقا لأمانيه :

ما اليوم أول توديعي ولا الثانى البين أكثر من شوق وأحزاني
دع الفراق فإن الدهر ساعده فصار أملك من روى لحناني
خليفة الخضر من يربع على وطن في بلدة فظهور العيس أوطاني

وهو كثير ذكر النوى في قصائده فيه . ولما نزل عنده كان شديد الأمل :

يامن به بدت من بعد ما هزلت منى المنى وأرتنى وجه خسرانى
كن لي مجيرا من الأيام إن لها بدا تفحص عن سرى وإعلاني

ويظهر أنه حقق آماله :

شافهت أسباب الغنى بمحمد حتى ظننت بأنها تتكلم

* * *

لَسْمُ يَنَّا عَنِ مَطْلَبٍ وَمُحَمَّدٌ عَوْنٌ عَلَيْهِ أَوْ إِلَيْهِ سُلْمٌ

وهو من القليلين الذين اتصل بهم أبو تمام فلم يهجمهم ولم يعاتبهم . ولكن هذا النجاح معه قد أدخل على نفس أبي تمام الطمأنينة شيئا ، ووسع الدنيا في وجهه ، فاستشرف إلى مدح من هو أكبر شأنا من محمد بن حسان . وما نعرف عن ابن حسان شيئا ، إلا أنه كان كبير ضربة في هذه الناحية .

والرقة البيضاء التي كان يقيم بها ابن حسان ، على أطراف الجزيرة من العراق ، أقرب ما تكون من الشام ، لا تكاد المسافة بينها وبين حلب تزيد على المسافة بين دمشق وحمص . فاذا كنت فيها فانت في الجزيرة بين دجلة والفرات . وإلى الشرق من الجزيرة بعد عبور دجلة آذر بيجان ، فقومس ، نغراسان . وإلى جنوب الرقة بشرق ، العراق ، وفيه بغداد حاضرة الخلافة . وكان أبو تمام يتطلع إليها ولكنه — كما يظهر — يتهيأ وإن جاذبته نفسه إليها .

وكان العراق من بعد مقتل الأمين في ثورات ودماء ، وكان المأمون قد ولى أمره الحسن بن سهل ، ليخضعه لسلطانه ، وكان في الحركة القائمة ضد المأمون غلبة للعلوية ، وقد تحدثت عن ذلك قبلا . فأراد المأمون إرضاءهم بأختيار ولى عهده من العلويين ، فلم تلبث أن شبت الثورة ببغداد ، وأختير إبراهيم بن المهدي خليفة ، بعد أن خلع المأمون .

ولكن الهدوء أخذ يعود إلى الناس شيئا ، منذ تحرك المأمون من مرو إلى خراسان . وقُتل الفضل بن سهل في الطريق سنة ٢٠٢ ، ومات الرضا سنة ٢٠٣ ، فخلع البغداديون إبراهيم بن المهدي بقيادة أنصار المأمون سنة ٢٠٣ .

وكان القاسم بالأمر في العراق بالنيابة عن المأمون ، الحسن بن سهل ، أخا الفضل المقتول . ولأبي تمام في الحسن بن سهل في ديوانه قصيدتان ، يقول في إحداها :

سِتُّ وَعَشْرُونَ تَدْعُونِي فَاتَّبِعُهَا إِلَى الْمَشِيبِ فَلَمْ تَظْلِمَ وَلَمْ تَحْبُ

وقد ظلت السوداء على الحسن بن سهل في هذه السنة (٢٠٣) ، حزنا على أخيه الفضل . ويقول ابن خلكان : إنها منعتة التصرف ، ويقول ابن الأثير : إنه وضع في الحديد وجعل على عسكره دينار بن عبد الله ، مما يرجح أن أبا تمام قد مدحه قبل هذا الجنون ، أى في سنة ٢٠٣ أو قبلها .

ولكن هذا يتناقض مع قوله : ست وعشرون ... البيت . إذا كان مولودا سنة ١٨٨ ، إذ تكون سنه يومئذ خمس عشرة أو ست عشرة سنة على الأكثر . وإذا كنت الآن أؤرخ حياة أبي تمام ، على أنه ولد سنة ١٨٨ لأنها كما قلت الرأى السائد . فلا محيص من ترك هذا الرأى ، لما أشتملت عليه القصيدة من نص صريح .



لا نعرف بعد هذا إن كان أبو تمام قد تجاوز الرقة البيضاء الى العراق ، أو لم يتجاوزها ، ولكني أرجح أنه سار الى العراق ، لما كان يبدو من ميله الى الذهاب إليه حين كان بالرقّة ، وأندرج في غمار الناس فيه ، وقال قصيدته في آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٢٠٥ في العراق ، متأثرا بالعوامل التي تحدثت عنها قبلا ، مما قوى الميل الى العلويين .

٦ - فترة غامضة

احتمال اشتغال أبي تمام فيها بالتأليف — ومن هنا الى سنة ٢١١ لانكاد نعرف ، على وجه التحقيق ، شيئا عن أبي تمام . ولكنني أستظهر أن أبا تمام قد قضى هذه الفترة ، منتقلا بين العراق وخراسان والشام ، يحاول أن يؤسس سمعته ومجده في تلك الأتحاء المختلفة . وأغلب ظني أنه جمع مختاراته الكثيرة في تلك الفترة من حياته .

يقول ابن النديم : ” أبو تمام حبيب بن أوس الطائي وله من الكتب : (١) كتاب الحماسة . (٢) كتاب الاختيارات من شعر الشعراء . (٣) كتاب الاختيار من أشعار القبائل . (٤) كتاب الفحول . وأشهرها جميعا كتاب الحماسة “ .

ويقول الآمدي الحسن بن بشر ، صاحب الموازنة ، ما يزيدنا إيضا في ذلك في الكلام على سرقات أبي تمام : كان أبو تمام مشتهرا بالشعر ، مشغوبا به ، مشغولا مدة عمره بتخيره ودراسته ، وله كتب واختيارات فيه مشهورة معروفة فمنها : (١) ” الاختيار القبائلي الأكبر “ ، اختار فيه من كل قصيدة . وقد مر على يدي هذا الاختيار ؛ ومنها : (٢) اختيار ترجمته ” القبائلي “ . اختار فيه قطعا من محاسن أشعار القبائل ، ولم يورد فيه كبير شيء للمشهورين ؛ ومنها : (٣) الاختيار الذي تُلَقِّط فيه محاسن شعر الجاهلية والإسلام ، وأخذ من كل قصيدة شيئا ، حتى انتهى الى إبراهيم بن هرمة ، وهو اختيار مشهور معروف ” بأختيار شعراء الفحول “ ؛ ومنها : (٤) اختيار تُلَقِّط فيه أشياء من الشعراء المقلين ، والشعراء المقهورين غير المشهورين ، وبؤبه أبوابا ، وصدره بما قيل في الشجاعة . وهو

أشهر اختياراته، وأكثرها في أيدي الناس، ويلقب "بالحماسة"؛ ومنها: (٥) "اختيار المقطعات" وهو مبوب على ترتيب الحماسة، إلا أنه يذكر فيه أشعار المشهورين وغيرهم، القدماء والمتأخرين، وصدره بذكر الغزل. وقد قرأت هذا الاختيار، وتلقت منه نتفا وأبياتا كثيرة، وليس بمشهور شهرة غيره، ومنها: (٦) اختيار مجتد، في أشعار المحدثين، وهو موجود في أيدي الناس ...



وهذه الاختيارات جميعا، تدل على اتجاه خاص إلى التأليف، ولا يكفي فيها أن نقول مع القائلين: إنه إنما كان مشغوقا بجمعها للاستفادة مما بها في شعره. ولو أراد ذلك وحده لقرأها فيما بينه وبين نفسه ولم يجعلها تحت أعين الناس، يقارنون بين ما فيها وبين ما في شعره من معان. فليس الغرض ما أراد خصوم أبي تمام أن يفهموه لنا، وما كان ذلك من أبي تمام إلا اتجاهها إلى التصنيف، على وجه من الوجوه، لسبب من الأسباب؛ قد يكون اضطرابه إلى العيش من هذه السبيل، لما لم يستمع الناس لشعره، في تلك الفترة من حياته. فكان حديث الزول بالعراق، في وسط يعج بالشعراء عجيجا، منهم من غلب على ميده أنه بما له من حق السبق إلى حلته، وكان أبو تمام يحمل مذهبا جديدا، يمزج فيه بين طلب اللفظ، وطلب المعنى، والإغراب حيناً، والتغميض حيناً، فشغل الناس عنه أول الأمر، حتى تهيأت نفوسهم بعد إلى قبول شعره. قد يكون هذا، وقد يكون غيره، وكل ما يمكن أن يقال: هو أن هذه الفترة من حياة أبي تمام غامضة.

(ب) شعره في آل عبد الكريم: يقول صاحب مادة أبي تمام في دائرة المعارف الإسلامية "إن أبا تمام أنتقل من دمشق إلى حمص، ليبدأ مهمته كشاعر، بتأليف أهاج في آل عتبة بن أبي حاصم، منتصرا لحماته بنى عبد الكريم. ثم رحل إلى مصر، حيث كان يكسب قوته أول الأمر ببيع الماء في الجامع الكبير".

فهو يجعل إتيانه مصر بعد قوله الشعر في حمص. وهذا ما يكذبه نص الصولي، الذي ذكرته في أول شعر قاله أبو تمام، وما رأينا من أنه نزل مصر صغيرا. كما أن في شعر أبي تمام في عتبة، ما يدل على أنه قاله بعد أن نزل المشرق والحجاز. ولم يذهب أبو تمام إلى المشرق والحجاز إلا بعد خروجه من مصر. يقول أبو تمام في هجاء عتبة هذا:

وقصائدُ تسرى إليك كأنها جُنْ تهافتُ أو همومٌ تطرُقُ

مِنْ مُنْهَضَاتِكَ مُقْعِدَاتِكَ خَائِفَا مُسْتَوْهَلًا حَتَّى كَأَنَّكَ تُطَلِّقُ^(١)
مِنْ شَاعِرٍ وَقَفَ الْكَلَامُ بِيَابِهِ وَأَكْتَنَ فِي كَفْنِي ذُرَاهِ الْمَنْطِقِ
قَدْ نَقَفْتُ مِنْهُ الشَّامَ ، وَسَمِلْتُ مِنْهُ الْمَجَازُ ، وَرَقَّقْتَهُ الْمَشْرِقُ

فهو يذكر فيها أثر المجاز والمشرق عليه . وإن لم يذكر مصر فليس معنى ذلك أنه لم يكن قد أتى إلى مصر . وأغاب ظني أن اشتباك أبي تمام مع عتبة هذا في حمص ، كان في هذه الفترة من حياته . فعندنا قصته مع ابن المعدل أو فتى البصرة التي أشرت إليها قبلا ، وهي تفيد أنه كان في البصرة ، كما استنتجت منها ، حوالى سنة ٢٠٧ لأوّل نزوله بها . وفي ديوانه شعري يصف فيه حجة له :

لَمَّا لَكَ ذَاكَ الْطَّلِيلُ الْقَدِيمَ وَمُؤَيِّدٍ بِالْعَهْدِ عَلَى الرُّسُومِ

وفي هذا الشعر يقول أبو تمام ، مخاطبا راحلته وراحلة رفيقه وممدوحه :

فَمَا لَكَ تَشْتَكِينَ وَأَنْتِ تَحْتِي وَتَحْتَ مُحَمَّدٍ بِدْرِ النُّجُومِ
مَتَى أَظْمَتِكَ هَاجِرَةٌ فَشِيمِي أَنَا مِلَّةَ تُرُوكٍ بِالنَّسِيمِ
وَأَنْتِ غَشِيَتِكَ ظِلْمَاءُ بَغْلِي يَغُتُّرُهُ دُجَى اللَّيْلِ الْبَهِيمِ
فَمَرَّتْ مِثْلَ مَا يَمْشِي شَهِيدٌ سَوِيًّا فِي صِرَاطٍ مُسْتَقِيمِ

فهو يذكر في أبياته ، ممدوحا من ممدوحيه ، اسمه محمد . ومن ممدوحيه الذين حجوا محمد بن يوسف الثغري أبو سعيد . ولكن خروج أبي سعيد الى هذه الحجة ، إنما كان بعد عمورية ، كما يقول ذلك راوى ديوان أبي تمام (النسخة المستحضرة حديثا من الاسكوريال) ، وقد قال أبو تمام في ذلك قصيدة مطلعها :

مَالِي بِعَادِيَةِ الْأَيَّامِ مِنْ قَبْلِ لَمْ يَثْنِ كَيْدُ النُّوَى كَيْدِي وَلَا حِيلِي

وفيهما ما يدل على أنه لم يرحل معه الى المجاز هذه المرة :

مَنْ كَانَ حَلَى الْأُمَامِي قَبْلَ ظَعْنَتِهِ أَصْبَحْتُ مَذْصَارَ ذَا أَمْنِيَّةٍ عَطْلٍ

الأبيات . فلم يرحل معه هذه المرة ، وقد يكون رحل معه غيرها .

وعلى كل حال ، ليس أماننا ما يمكن معه القطع بأن أبا تمام قال هذا الشعر قبل شعره في عتبة ، كما أنه ليس أماننا ما يقطع بأن اشتباكه مع عتبة ، ومدمحه آل عبد الكريم ، (وهم طائفيون) كان في هذه الفترة . وكل ما هنالك ظنون تستند على أن عتبة بن أبي عاصم شاعر من المجاهيل

(١) طلفت كفى على البناء للجهول في المخاض طلقا : أصابها وجع الولادة . ومستوها أى فرعا . المحيط

المغمورين ، مما يجعل مثل أبي تمام يستنكف أن يهاجيه في عصر متأخر من حياته ، بعد أن اشتهر أمره وذاع صيته . كما أن آل عبد الكريم هؤلاء ، ليسوا من الشهرة في التاريخ بحيث نضعهم في صف من اتصل بهم أبو تمام بعد سنة ٢١٤ ، من كبار رجال الدولة الإسلامية وقوادها .

هذه مرتجات تجعلني أضع مدح أبي تمام لبني عبد الكريم في هذه الفترة . وبسببهم اشتبك مع عتبة بن أبي عاصم الشاعر الذي كان يهجوهم . وبذلك يكون أبو تمام قد زار الحجاز في هذه الفترة ، وليس يبعد أن يكون أدى إذ ذاك فريضة الحج ، وأن شعره هذا فيها .



وهو يصرح في قصيدة له فيهم مطامها :

يادارُ دارَ عليك إرهامُ الندى^(١)
وكسيت من حُلّ الحيا مستأسدا
وأهتز روضك في الثرى فترأدا
أنفا يغادر وحشه مستأسدا

يصرح فيها أنه قصدهم من دمشق :

يا صاحبي يدمشق لست بصاحبي
أذن المعبدة السناد وأنها^(٢)
وإلى بني عبد الكريم تواهقت
رأتك النعام رأى الظلام نفودا^(٣)

وممدوحه من طي :

لا تعدنك طي فلقما
عدمت عشيرتك الجواد السيدا

وقد هجاهم عتبة ، فيقول له أبو تمام :

بنو عبد الكريم نجوم ليل
فلا حسب صحيح أنت فيهم
إذا كان الهجاء لهم ثوابا
ترى في طي أبدا تلوح
فتكثروهم ولا عقل صحيح
فأخبرني لمن خلق المديح

وكان عتبة رجلا كبير السن :

وما وقد المشيب عليك إلا
بأخلاق الدناءة والضرامه

(١) أرهمت السماء : أتت بالرهام بكسر الراء . وهو المطر الضيف الدائم . والإرهام : المصدر من أرهم . وتراد : أهتز نعمة كارتاد . (٢) السناد بالكسر : الناقة القوية . (٣) تواهقت الركاب : تساورت . ورتك البعير : مقاربه خطوه . ونفود : أسرع في سيره .

شاعرا ينتسب إلى كلب :
دَعَاكَ فِي كُلِّ أَعْمٍ فَضِيحَةً وَأَخْسُ أَمْ دَعَاكَ فِي الشُّعْرَاءِ؟
ويقول عنه في أخرى :
نُبِّئْتُ عُنْبَةَ شَاعِرٍ الْغَوَاغِ قَدْ ضَجَّ مِنْ عَوْدِي وَمِنْ لُبْدَائِي
وقد هجاء عنبة أول الأمر :
أُنْبِئْتُ عُنْبَةَ يَعْوَى كَى أَشَاتِمَهُ اللَّهُ اكْبُرَ أَنِّي أَسْتَأْذِنُ النَّقْدَ^(١)
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ الدَّهْرَ يُهَيِّئِي حَتَّى أَرَى أَحَدًا يَهْجُوهُ لَا أَحَدٌ
مدفوعاً إلى هجائه وهجاء قومه بآخرين ربما كانوا كلباً :
دَعَّ مَعْشَرِي لَا مَعْشَرَ لَكَ إِنِّي مِنْ خَلْفِهِمْ وَأَمَامِهِمْ لَكَ مُوْبِقُ
كَمْ نَادَمْتُ أَسِيفُنَا أَرْمَاحَهُمْ بَيْنَ الْجَيُوشِ عَلَى دِيمٍ يَتَفَرَّقُ
عُمِّي حَدَّوْكَ إِلَى أَيُّ عَجِيْبَةٍ أَعْمَى دَلِيلُ هُدًى وَأَنْخَسُ يَنْطِقُ

٧ - عود أبي تمام إلى مصر

في سنة ٢١٠ ، كما يقول الكندي في الولاة والقضاة ، أقبل عبد الله بن طاهر إلى الشام ، فظفر بنصر بن شبت ، وكان خارجاً على الخلافة . وأقبل سائراً نحو مصر ، ليخضع عبيد الله بن السري ، الذي كان يليها على غير رغبة المأمون . وقد حاربه عبد الله وقهره ، وأنزله على أمان ، ثم أرسله إلى بغداد ، وذلك في سنة ٢١١ ، فقال أبو تمام في ذلك شعراً منه :

لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَتْ بِمِصْرَ وَبِقَيْعَةٍ أَقَامْتُ عَلَى قَصْدِ الْهُدَى كُلِّ مَائِلٍ

ولسنا نعرف إن كان أبو تمام قد اتصل بعبد الله قبل ذلك في العراق ، أو عند نزوله الشام ، أو أنه ورد مصر وأبو تمام فيها ، أو وردها أبو تمام عليه .

وفي يوم الثلاثاء ، لثلاث عشرة من ربيع الآخر سنة ٢١٤ قتل أهل الحوف الثائرون من اليمانية والفيسية ، عمير بن الوليد ، وإلى مصر من قبل المأمون . فقال أبو تمام يرثيه :

فِي يَوْمِ الثَّلَاثَا كَكُمُ كَمِيبٍ رَمَاهُ الْحَزَنُ فَيْكَ وَكُمُ عَمِيدٍ

(١) النقد : بالتحريك جنس من الغنم فيج الشكل .

ومنها :

حضرتُ فناءً بآبك فأعتراني شجىً بينَ المخنقِ والوريدِ

وفي سنة ٢١٤ هـ هزم هؤلاء الثوار من القيسية واليمانية عيسى بن يزيد الجلودى ، بالنويرة في مصر ، فقال أبو تمام يهجو الجلودى في شعر ذكرت منه قبل شيئا .

٨ - في العراق

وفي هذه السنة نفسها يترك أبو تمام مصر مرتحلا عنها الى العراق ، حيث يتدبى أزهر أيامه ، وأخصبها ، وأذخرها بالإنتاج والحياة والشعر .

تفصيل مقتل محمد بن حميد الطوسي ، ورثاء أبي تمام له : في هذه السنة يقول أبو تمام قصيدته :

كذا فليجلَّ الخطبُ وليقدح الأمرُ فليس لعينٍ لم يفيض ماؤها عُذْرُ

في رثاء محمد بن حميد الطائي ، وكان في حرب بآبك الخرمي قتل . ولإدراك الصلة بين شعر أبي تمام وبين ما كان في قتل محمد أنقل ما كتبه ابن الأثير ، قال عن أين حميد :

”فسلك المضايق إلى بآبك ، وكان كلما جاوز مضيقاً أو عقبة ، ترك عليه من يحفظه من أصحابه إلى أن نزل ”بهشتادسر“ وحفر خندقاً ، وشاور في دخول بلد بآبك ، فأشاروا عليه بدخوله من وجه ذكره له ، فقبل رأيهم ، وعبا أصحابه ، وجعل على القلب محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الطائي المعروف بأبي سعيد ، وعلى الميمنة السعدى بن أصرم (ويقول عنه يعقوب المهدى بن أصرم ، وأظن أن في عبارة ابن الأثير تصحيفاً ، إذ هو في ديوان أبي تمام أيضاً مهدي بن أصرم) وعلى الميسرة العباس بن عبد الجبار اليقطيني ، ووقف محمد بن حميد خلفهم في جماعة ينظر إليهم ، ويأمرهم بسد خلل إن رآه . فكان بآبك يشرف عليهم من الجبل ، وقد كن لهم الرجال تحت كل صخرة . فلما تقدم أصحاب محمد ، وصعدوا في الجبل مقدار ثلاثة فراسخ ، خرج عليهم الكناء ، وأنحدر بآبك إليهم فيمنعه ، وأنهمز الناس ، فأمرهم أبو سعيد ومحمد بن حميد بالصبر فلم يفعلوا ، ومروا على وجوههم والقتل يأخذهم “ .

يقول ابن الأثير ”وصبر محمد بن حميد مكانه ، وفر من كان معه غير رجل واحد ، وسارا يطلبان الخلاص ، فرأى جماعة وقتالا ، فقصدهم فرأى الخرمية يقاتلون طائفة من أصحابه ، فحين رآه الخرمية

قصده، لما رأوا من حسن هيئته . فقاتلهم وقتلوه، وضربوا فرسه بمزارق، فسقط الى الأرض واكبوا على محمد بن حميد فقتلوه . وكان محمد ممدوحا جوادا فرثاه الشعراء واكثروا، منهم الطائي . فلما وصل خبره الى المأمون عظم ذلك عنده^(١) .

قصة هذا البطل، قد ألهمت أبا تمام شعرا من أجمل الشعر، وهزت نفسه بقصائد من خير ما في ديوانه . يقول البديعي : إن أبا تمام لما بلغه خبر قتله، غمّس طرف رداءه في مداد ثم ضرب به كتفيه وصدره، وأنشد القصيدة التي تمنى أبو دأف لو كان هو المقتول وقيلت فيه :

كَذَا فَلْيَجَلَّ الْخَطْبُ وَلْيَفْدِجِ الْأَمْرُ فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ مَاؤُهَا عُدْرُ
تَوَفَّيْتَ الْأَمَالَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السَّفَرُ

ومنها :

فَتَى كَلِمًا فَاضَتْ عَيُونُ قَبِيلَةٍ دَمَا ضَحِكَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ
فَتَى دَهْرُهُ شَطْرَانِ فَيَا يَنْوِبُهُ فَتَى بِأَسِيهِ شَطْرٌ وَفِي جُودِهِ شَطْرُ
فَتَى مَاتَ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ مَيَّةٌ تَقْدُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِنْ فَاتَهُ النَّصْرُ
وَمَا مَاتَ حَتَّى مَاتَ مَضْرِبُ سَيْفِهِ مِنَ الضَّرْبِ وَأَعْلَتْ عَلَيْهِ الْقَنَا السُّمْرُ
وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الْمَوْتِ سَهْلًا فَرَدَّهُ إِلَيْهِ الْخِفَاطُ الْمَرْوُ وَالْخُلُقُ الْوَعْرُ
وَنَفْسٌ تَعَافُ الْعَارَ حَتَّى كَانَهُ هُوَ الْكَفَرُ يَوْمَ الرُّوحِ أَوْ دُونَهُ الْكُفَرُ
فَأَثَبْتُ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رَجُلَهُ وَقَالَ لَهَا : مِنْ تَحْتِ أَنْتِ خَصِيكَ الْحَشَرُ
غَدَا غُدُوَّةَ وَالْحَمْدُ نَسَجَ رِدَائِهِ هُوَ الْكَفَرُ يَوْمَ الرُّوحِ أَوْ دُونَهُ الْكُفَرُ
تَرْدَى ثِيَابُ الْمَوْتِ حُمْرًا فَادْبَجَى وَقَالَ لَهَا : مِنْ تَحْتِ أَنْتِ خَصِيكَ الْحَشَرُ
كَأَنَّ بَنِي نَهَانَ يَوْمَ وفَاتِهِ فَلَمْ يَنْصِرْفِ إِلَّا وَكَفَانَهُ الْأَجْرُ
يُعْزَوْنَ عَنْ نَاوٍ أَمْزَى بِهِ الْعِلَا لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضَرُ
وَأَنَّى لَهُمْ صَبْرٌ عَلَيْهِ وَقَدْ مَضَى نَجُومُ سَمَاءٍ خَرَّ مِنْ بَيْنِهَا الْبَدْرُ
فَتَى كَانَ عَذَابُ الرُّوحِ لَا مِنْ غَضَاضَةٍ وَيَبْكِي عَلَيْهِ الْبَاسُ وَالْجُودُ وَالشَّعْرُ
وَهَكَذَا يَسِيرُ فِي الْقَصِيدَةِ حَتَّى يَنْتَهَى . وَأَهَمُّ مَا فِيهَا هُوَ فَنْهٌ فِي تَصْوِيرِ مَا وَقَعَ ، فَانِ الصَّلَاةَ بَيْنَ
حَدِيثِ ابْنِ الْأَثِيرِ الْمُؤَرَّخِ ، وَقَصِيدَةِ أَبِي تَمَامِ الشَّاعِرِ ، تَرَى أَنَّ كُلَّ بَيْتٍ مِنْ أَيْبَاتِ أَبِي تَمَامٍ قَدْ
أَسْتَدَّ إِلَى أَصْلٍ فِي التَّارِيخِ .



كان بابك خارجا بنغر آذربيجان منذ سنة ٢٠١ . يقول ابن الأثير : إنه تحرك في الجاويدانية : أصحاب جاويدان بن سهل صاحب البذ ، وأدعى أن روح جاويدان قد حلت فيه ، وأخذ في العبث والفساد . وتفسير جاويدان : الدائم الباقي . ومعنى نحر فرج . وهى مقالات الجوس . والرجل منهم ينكح أمه وأخته وأبنته ، ولهذا يسمونه دين الفرج ، ويعتقدون مذهب التناسخ ، وأن الأرواح تنتقل من حيوان إلى غيره .

ويقول اليعقوبى : " إنه تحرك بعريض حاتم بن هرثمة ، لما قتل المأمون أباه هرثمة بن أعين . تحرك فغلب في عمل آذربيجان ، وبلغ المأمون الخبر ، فولى يحيى بن معاذ بن مسلم : مولى بنى ذهل أرمينية ، (وأمره بحرب بابك) ففعل ذلك . وأوقع يحيى بن معاذ وقعات لم يظهر عليه في وقعة منها ، وكان المأمون قد أمر عيسى بن محمد بن أبى خالد ، القائد المحارب كان في أيام المخلوع . فلما لم يحمّد أثريحي ولى عيسى أرمينية وآذربيجان ... ولقيه بابك فهزمه ، فتر عيسى مولى لا يقف ... وانصرف من آذربيجان إلى أرمينية ... وأستعظم أمر بابك بالبذ ، فولى المأمون زريق بن على بن صدقة الأزدي ، فلم يصنع شيئا . فولى محمد بن حميد الطوسي (الذى سبق رثاء أبى تمام فيه) فقتل محمد ، وانهزم العسكر " .

(ب) اتصال أبى تمام بأبى سعيد الثغرى : كان من قواد محمد بن حميد الطوسي الطائى هذا في موقعته مع بابك ، أبو سعيد محمد بن يوسف الطائى ، ويلقب بالثغرى نسبة لعمله معظم أيامه في ثغور المسلمين .

ومحمد بن يوسف الطائى من ممدوحى أبى تمام ، الذين ظل اتصاله بهم من أول معرفتهم له حتى آخر أيام حياته . ويظهر لى أن معرفة أبى تمام بأبى سعيد كانت قبل سنة ٢١٤ هذه . فلأبى تمام فيه شعر يدل على أنه كان صغير السن يوم قاله ، وأن أبا سعيد لم يكن ينظر إليه بعين الاعتبار . يقول له بعد بكاء :

فلئن شطت الديار وغال الـ	ذ هر في آلف وفي مألوف
وتبدلت بالبشاشة حزنا	بعد لمو في مريع ومصيف
فعزائي بأن عرضى مصون	سائع الورد ، والسماح حليف
ثم علمى على حدائق سنى	بصروف الدهور والتصرف

ومنها :

ليت شعري ماذا يربك مني ولقد فقت فطنة الفيلسوف
 اتهمز فرصة تسرك مني بأصطناع الخيرات والمعروف
 أنا ذو منطق شريف لإعطا ومنطقي لمنع عنيف
 ما أبالي إذا عتك أموري كيف أنحت على أيدي الصروف

فهو في الأبيات جديد لديه ، يقدم إليه بضاعته ، وأبو سعيد مشغول عنه . وهو ما يبعد أن تكون عليه حال أبي تمام صاحب الرثاء في محمد بن حميد . وله أبيات لها نفس هذا الروح أولها :

فأشدُّ يدك على يدي وتلافني من مطلب كدير الموارد راكد

الأبيات . وله فيه قصيدة أخرى ، تدل على أن اتصاله به سنة ٢١٤ إنما كان تكلمة لحياة سبقت له معه ؛ إذ أن فيها روحا قلعا ، وضعفا هو ضعف الناشئ :

حل الأمير محل رfid الرافد ومبيح طارف ماله والتالد^(١)

ومنها :

الأيأس ألزمني محل القاعد إذ ليس جدى في الحدود بصاعد
 مالى حرمت لديك خطوة خالد أولست أقدم حرمة من خالد
 عوز الرجال أقام منة خالد والصفى نفق سوق برد البارد
 شخصان أفا كان قبلهما الخنا حالا لديك محل عمرو الزاهد

ومنها :

فعلام أصبح من نذاك بمعزل وسواى تلحظه بعين الوالد

ففيها حس بالأيأس والحرمان ، وقعود الجدد ، وهو أشبه بشعره أول أمره .

وكان أبو سعيد هذا من مرو . ويقول عنه أبو تمام :

غربته العلى على كثرة الأهل فأضخى فى الأقربين غريبا
 فلبطل عمره فلو مات فى مر ومقيا بها لمات غريبا

ويذكر الصولى عنه أيضا أنه كان من مرو . وظنى أنه اتصل به فى خراسان ، قبل مقدمه مصر

للمرة الثانية . أى قبل سنة ٢١١ . وربما يكون عرف عن طريقه آل حميد .

هذا احتمال لا نستطيع أن نقطع به ، يساعده ما ذكرت . وقد يكون اتصال أبي تمام به أول اتصال سنة ٢١٤ ، لما مات محمد بن حميد فكان من محاولاته ما رأينا .

(ج) أنصاله بمهدى بن أصرم : ممن اتصل بهم أبو تمام ، من قواد هذه المعركة أيضا مهدى بن أصرم^(١) ، وهو طائي أيضا يقول أبو تمام :

عَمِيدُ الْغَوْثِ إِنْ نُوبَ اللَّيَالِي سَطَتْ وَقَرَّيْعُهَا عِنْدَ الْفِرَاعِ
وهو من قصيدة مطلعها :

خُذِي عِبْرَاتٍ عَيْنِكَ مِنْ زُمَايِ وَصُونِي مَا أَذَلَّتْ مِنَ الْفِنَاعِ
أَقْلَى ، قَدْ أَضَاقَ بُكَاءُكَ ذَرْعِي وَمَا ضَاقَتْ بِنَازِلَةٍ ذِرَاعِي
أَلْفَةَ النَّجِيبِ كَيْمَ افْتِرَاقِ أَلَمْ فَيَكُنْ دَاعِيَةً أَجْتِمَاعِ

(د) أثر معارك بابك في شعر أبي تمام : وكما ألمت هذه الواقعة بأبا تمام هذا الشعر كله ، ظل أثرها يتردد في شعره بعد ذلك زماما . فهو إذا مدح محمدا أبا سعيد الثغري بعد ذلك سنة ٢٢٠ ، ذكر ابن حميد شهيد بابك فقال له :

مِنْ كُلِّ قَرَمٍ يَرَى الْأَقْدَامَ مَادِبَةً إِذَا خَدَى مُعَلَّمًا بِالسَّيْفِ أَوْ وَسْجَا^(٢)
تَسْعَى مُحَمَّدًا الثَّأْوَى رِمَاحَهُمْ وَيَسْفَحُونَ عَلَيْهِ عَبْرَةَ نَسْجَا

ويقول في أخرى قالها بعد أخذ بابك سنة ٢٢٢ :

وَاللَّهِ يَشْكُرُ وَالْخَلِيفَةُ مَوْفِقًا لَكَ شَائِمًا بِالْبَدِّ صَغْبَ الْمَشْهَدِ
أَدْرَكَتْ فِيهِ دَمَ الشَّهِيدِ وَنَارَهُ وَفَلَجَتْ فِيهِ بِشِيرَ كُلِّ مُوَحِدٍ^(٣)



وعندي أن هذه الواقعة ، وأنفعال أبي تمام بها ، قد أعطت شعره لونا جديدا . ذلك أن شعر أبي تمام قبلها كان لا يكثر فيه وصف الحرب ، أما بعد هذه الواقعة ، فقد كثر كثرة جعلته من مميزات شعره .

(١) كما هو في الديوان وفي تاريخ يعقوبى . أو سمى بن أصرم كما هو في تاريخ ابن الأثير .

(٢) خدى البعير والفرس خديا وخديانا : أسرع . والوسج : سير الإبل والفعل وسج كوعده .

(٣) الفلج : الظفر والفوز .

٩ - تنقل أبي تمام بين الثغور

إذا كان أبو تمام بأذربيجان فهو في إقليم يجاور إرمينية . وهي ثغر من ثغور المسلمين ، الملاصقة لأرض الروم في آسيا الصغرى . وكانت إرمينية ، ككل ثغور المسلمين في هذه الناحية ، محل اتصالهم بقوة معادية ، لتبادل فيه الغارات بين الأمتين . وطبيعة البلاد الجبلية ، وتلك الاضطرابات الدائمة على حدودها ، وأندساس العناصر الغريبة فيها ، كان يجعلها محلا لثورات بعض أبنائها ممن يوقظ أطعمهم المذ والخزر الدائم على الحدود ، وتحريض العدو ، فما كانت تهدأ ثورة حتى تشور أخرى .

(١) اتصاله بخالد بن يزيد : ففي سنة ٢١٤ ، وهي السنة التي كان فيها أبو تمام بأذربيجان ، كان المأمون قد وجه بخالد بن يزيد بن مزيد الشيباني لإخضاع ناثر بأرمينية ، يدعى محمد بن عتاب ، فأخضع خالد الثوار ، وقتل فيهم وأسر ، وأرسل الأسرى إلى المأمون . فما كان من المأمون إلا أن عفا عنهم ، وضمهم إلى جند أخيه المعتصم . ويقول يعقوبى : ” إنه عزل خالدًا عن أرمينية وولاه آخر ، فأحسن خالد السعاية ، فأنحدر خالد إلى بغداد ، فضمه الخليفة إلى المعتصم “ .

(ب) مدح أبي تمام للمأمون : وأرجح أن أبا تمام قد اتصل به في هذه المرة ، إذ بعدها بقليل نجد من قصائده فيه قصيدة تتصل بغزو المأمون للروم في سنة ٢١٦ كما سيجىء بعد .

” في سنة ٢١٥ خرج المأمون في المحترم متوجها إلى بلاد الروم ، فغزا الصائفة ، وأفتتح أنقرة ، نصفا بالصلح ، ونصفا بالسيف ، وأحربها . وهرب منويل البطريق منها . ثم أنصرف فتزل على دمشق “ . (١) فيقول أبو تمام لأبي سعيد بن يوسف الثغرى ، وكان مع المأمون كما يفهم من يعقوبى : (٢)

لَمَّا فَصَلْتَ مِنَ الدُّرُوبِ إِلَيْهِمْ	بِعَرْمَرٍ لِلْأَرْضِ مِنْهُ خُورٌ
إِنْ يَتَكَرَّرُ تُرْشِدُهُ أَعْلَامُ الصَّوَى	أَوْ يَسِيرُ لَيْلًا فَالْجُجُومُ مَنَارٌ
فَالْحَمَّةُ الْبَيْضَاءُ مِعَادٌ لَهُمْ	وَالْقُقُلُ خَتْمٌ وَالْخَلِيجُ شِعَارٌ

ومنها :

إِنْ لَا تَتَلَّ مَنَوِيلَ أَطْرَافِ الْقَنَا	أَوْ تُثْنِ عَنْهُ الْبَيْضُ وَهِيَ حِرَارٌ
فَلَقَدْ نَمْنَى أَنْ كُلَّ مَدِينَةٍ	جَبَلٌ أَشْمٌ وَكُلُّ حِصْنٍ غَارٌ

ولم يذكر في التاريخ اسم منويل هذا إلا في هذه الموقعة بين الروم والمأمون ، ومعنى هذا أن أبا سعيد كان يقوم بعمل في هذه المعركة إلى جانب المأمون .

(١) تاريخ يعقوبى . (٢) نفسه (ج ٢ ص ٥٦٩) .



وفي سنة ٢١٦ عاد المأمون الى بلاد الروم غازيا، فداس أرضا، ووجه المعتصم وغيره ففتحوا، وهدموا حصونا، ثم عاد الى دمشق، فقتل بها . يقول اليعقوبي : " وبلغ المأمون أن طاغية الروم قد زحف، فوجه إليه العباس ابنه، فلقبه وهزمه . وكان العباس على الجزيرة منذ سنة ٢١٤، وفتح الله على المسلمين ، ووجه اليه توفيل ملك الروم، بالأسقف صاحبه، ومعه كتاب منه ، رفض المأمون أن يقرأه، وسأل أن يقبل منه مائة ألف دينار والأسرى الذين عنده ، وهم سبعة آلاف أسير، وأن يدع لهم ما أفتح من مدائن الروم وحصونهم ، ويكف عنهم الحرب خمس سنين ، فلم يجبه الى ذلك ، وأنصرف الى كيسوم من أرض الجزيرة من ديار مضر^(١) .

وكان خالد بن يزيد الشيباني، على ما رأيناه من قبل في عسكر المعتصم . فيقول أبو تمام في قصيدة له فيه، بعد أن يصف رحلته إلى خالد :

ولما رأى توفيل راياتك التي	إذا ما استقامت لا يقاومها الصلبُ
تولى ولم يأل الردى في آتباعه	كأن الردى في قصده هائم صبُ
كأن بلاد الروم عثمت بصيحة	فضمت حشاها، أورغا وسطحها السقب
بصاغرة القصوى وطمين وأقترى	بلاد قرنطاؤوس وابلك السكب
غدا خائفا يستنجد الكتب مدعنا	عليك فلا رسلُ ثنتك ولا كتب
وما الأسد الضرغام يوما بعاكس	فريسته إن أن أو بصبص الكلب
مضى مذبرا شطر الدبور ونفسه	على نفسه من سوء ظن بها ألب
جفا الشرق حتى ظن من كان جاهلا	بدين النصارى أن قبلة الغرب

ولهذه القصيدة زمن آخر يمكن أن توضع فيه، وهو سنة ٢٢٣ . وذلك في أيام المعتصم، لما خرج لفتح عمورية، أنتقاما لغزو الروم زبطرة، والتمثيل بأهلها . فقد أجتاح جيوش المسلمين بلاد الروم، وكان خالد بن يزيد الشيباني والى إرمينية يومئذ من قبل المعتصم، ولكنه لم يلبث بها طويلا . يقول اليعقوبي « فولى المعتصم خالد بن يزيد إرمينية، وناحية من ديار ربعة . فلما بلغ خبره إرمينية تحصن كل رئيس فيها، وأشتد خوفهم منه، وعملوا على العصيان . فكتب منصور بن عيسى السبيعي، صاحب بريد إرمينية، إلى المعتصم بذلك، فرد خالد وأمر باقرار على بن الحسين^(٢) » .

فليس هناك ما يمنع أن يكون خالد قد رد عن إرمينية فاشترك في فتح عمورية وغزو أرض الروم .



وقدم المأمون مصر، كما يقول الكندي "عشر خلون من المحرم سنة ٢١٧ لإخضاع الثائرين من أهل الخوف، وكان قد سبقه إليها الأفشين. وبعد أن استقام الأمر فيها، خرج عنها في يوم الخميس لثاني عشرة من صفر". يقول اليعقوبي "وقدم دمشق منصوراً من مصر، فأقام أياماً، ثم شخص إلى الثغر فنزل أذنة معسكرها. وقد كان أبو سعيد محمد بن يوسف الطائي و... من أصحاب محمد بن حميد الطوسي، الذين كانوا يأذربيجان صاروا إلى باب المأمون ...".

ولم يكن أبو تمام حتى ذلك الحين قد اتصل بخليفة من الخلفاء ولا مدحه، فأراد أن يجرب حظه هذه المرة، فقال في سنة ٢١٧ والمأمون يومئذ في غزو الروم بعد عودته من مصر، قصيدة مطلعها :

كُشِفَ الْغِطَاءُ فَأَوْقَدِي أَوْ أَحْمِدِي لَمْ تَكْنَدِي فَظَنْتُ أَنَّ لَمْ تَكْنَدِي

ومنها يذكر مجيئه مصر :

فَانْتَأَشَ مِصْرَ مِنَ اللَّتْبِا وَالْتِي تَجَاوَزَ وَتَعَطَّفَ وَتَغَمَّدَ

ولما كانت هذه أول مرة يتجه فيها بشعره إلى خليفة عالم كالمأمون، فقد بذل أبو تمام في نظمها غاية ما يستطيع من جهد، وأفرغ فيها كل مواهبه الصناعية، فخرجت أشبه بكل هذه الزخارف التي يسوق الإنسان إليها نفسه سوقاً، ويدفعها في إخراجها دفعا، خالية من الروح القيم الذي يحري في كثير من شعر أبي تمام. ولقد مضى المطامع، ولست أرى فيه حظاً من توفيق؛ ليس فيه جديد معنى وإن كان فيه عظيم تكلف.

ففي المطلع من البديع. أوقدي وأحمدي، وفيه لم ولم، وفيه تكدى بمعنى تخفين الكمد، وتكدى بمعنى تصابين بالكمد، والقصيدة مليئة بعد ذلك بالمحاولات البديعية، المحتمل منها وغير المحتمل، وفيها من الأبيات ما أخذ على أبي تمام التغميض فيه، أوقبح الاستعارة. فالخرجاني يتساءل أهنالك بيت شعر أوج إلى تفسير يقرط من قول أبي تمام :

يَوْمُ أَفَاضَ جَوَى أَغَاضَ تَعَزَّيَا خَاضَ الْهَوَى بِحَرَى حِجَاهُ الْمُرِيدِ

والآمدى يقول : وهل يزيد قبح الاستعارة على قوله :

فَطَوَّيْتُ بِالْمَوْعِدِ أَعْنَاقَ السُّورِ وَحَطَّمْتُ بِالْإِنْجَازِ ظَهْرَ الْمَوْعِدِ

وإن عباراته في الاعتراض على قول أبي تمام في هذه القصيدة :

جَارَى إِلَيْهِ الْبَيْنَ وَصَلَ خَرِيدَةً مَاشَتْ إِلَيْهِ الْمَطْلَ مَشَى الْأَكِيدَ

لَتَشْبِهَ صَرَخَ الْجَزَاعِ . فهو بعد تفسير البيت يهتف مستنجدا بأهل اللغة العربية ، ومنها البيت الذي يضربه الأمدى مثلاً للمعاظلة وهو :

يَا يَوْمَ شَرَّدَ يَوْمَ طُيُورٍ لِحُوءِ بَصَابِيْ ، وَأَذَلَّ عِرَ تَجَلُّدِيْ

كما أن فيها من الألفاظ : " العنقفير المؤيد " وكفى . ويظهر أن أبا تمام كان يريد أن يتقرب إلى المأمون غاية ما يستطيع . فيقول له :

وَوَسِّلْتَنِي فِيهَا إِلَيْكَ طَرِيفَةً شَامِ يَدَيْنِ مُجِبِّ آلِ مُحَمَّدٍ ^(١)

نَيْطَتِ قَلَامُكَ ظَرْفَهُ عَجِيرٌ مَتَمِشِقِيْ مُتَكَوِّفٌ مُتَبَغِّدِ

فهو يتوسل إلى قربه بأنه شامي يحب آل النبي ، مع أن كل شامي متشيع لبنى أمية .

قال التبريزي « ووصف نفسه بالمتكوف ليمت إلى المأمون بأنه شيعي ، لأن المأمون أظهر التشيع في أول أمره ، وأهل الكوفة ينسبون إلى أنهم شيعة ، ومتدمشق ، لأنه من جاسم من أعمال دمشق ، ومتبغدد ، أي ظريف ، لأن أهل بغداد ينسبون إلى الظرف . وإذا رأيت أن الشارحين قد أخرجوا هذه الصفات إلى معانيها التبعية عن الأصلية ، فلا يلزم منها أنه ذهب إلى الحيرة ودمشق وبغداد والكوفة وإن جاز ذلك » .

وأظننا الآن لسنا بحاجة إلى الاحتجاج بهذا البيت ، فقد كان أبو تمام جاب قبل قوله هذا ، العراق وأبعد إلى غيرها . وإلى اليتيم الماضين ثالث :

حَتَّى لَقَدْ ظَنَّ الْقَوَاةُ وَبَاطِلُ أَنَّنِي قَدْ تَجَسَّمْتُ فِي رُوحِ السَّيِّدِ

أي باطل ما ظنوا ، من أن روح السيد الحميري الشاعر المتشيع قد حل في . فهو ينكر الحلول ، ولا ينكر التشيع . وفي هذا ما يستأنس به ، ليسند ما قلت من أنه قال قصيدته المتشيعية يوم كانت سنة سبع عشرة كما ذكر فيها ، تقرباً لأصحاب الشأن يومئذ ، كالتخليفة وآل سهل .

(ولا نعرف أنشد قصيدته هذه بين يدي المأمون ، أم أرسلها إليه . وفي القصيدة بيت قد يؤخذ منه أنه بعثها إليه وهو بعيد عنه يقول منها)

وَمُرَّ حَزَنَاتِي عَنْ ذَرَاكَ عَوَائِقُ أَصْحَرَنِي بِي لِلْعَنْقِفِيرِ الْمُؤَيِّدِ

(١) يقال في النسبة إلى الشام : هوشامى وهشامى وشام .

والمصيبة كما في يا قوت مدينة على شاطئ جيحان ، من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم ، تقارب طرسوس . ومن الحديث يفهم أن ذلك كان بعد فتح عمورية ، ولم تفتح عمورية إلا في سنة ٢٢٣ في قول ، أو سنة ٢٢٤ في قول آخر . وأبو تمام في قصيدته هذه شاعر حقا . يقول في إرضاء حسه الشعري أكثر مما يقول في إرضاء المأمون بمدحه .



تأتي بعد هذه قصيدة ثالثة مطلعها :

دِمْنُ أَلَمٍ بِهَا فَقَالَ سَلَامٌ كَمْ حَلَّ عَقْدَةَ صَبْرِهِ الْإِلْمَامُ

ومنها غزل يمتاز بحلاوة الروح ، وإطالة النظر في العاطفة ، ونتاج الفكرة ، ونضج الشعر :

وقفوا على اللوم حتى خيلوا أن الوقوف على الديار حرام
لا مَرَّ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِلَّا وَفَى أحشائه لِمِحْلَتَيْكَ غَمَام
حتى تُعَمِّمَ صُلْعَ هَامَاتِ الرَّبِي مِنْ نَوْرِهِ وَتَأْزُرُ الْأَهْضَام
ولقد أراك فهل أراك بغبطة والعيش غَضٌّ والزمانُ غِلَام
أعوامٌ وصل كان يُنْسِي طَوْلَهَا ذَكَرُ النَّوَى فَكَأَنَّمَا أَحْلَام
ثم أنبرت أيام هجرٍ أَرْدَفَتْ نَجْوَى أَسَى فَكَأَنَّمَا أَعْوَام
ثم أنقضت تلك السنون وأهلها فَكَأَنَّمَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَام
أَتَحَدَّرْتُ عِبْرَاتُ عَيْنِكَ أَنْ دَعْتُ وَرَقَاءُ حِينَ تَضَعُضَعُ الْإِظْلَام
لا تشجين لها فإت بكاءها ضِحْكٌ وَإِنْ بَكَاءُكَ أَسْتِغْرَام
هنَّ الحام ، فإن كسرت عيافة مِنْ حَائِثٍ فَلَانَتْ حِمَام

شعر كأنه الحديث الجارى سهلا رخاء ، ليس يخط فيه صاحبه كما يشاء لسانه ، وكما تحكه عباراته ، لكنه يفكر ويتأمل ويتتبع فكرته ، وهو يحس فينظر في حسه قبل أن يبرزه الناس ، يروض العبارات ترويضاً لأدائه . ليس بالرياضة القاسية التي تجعل الشعر ناشف الماء ، ذابل الونق . وفيها مزج بين وصف جمال الطبيعة ، والغزل ومنها يذكر غزاته :

لَمَّا رَأَيْتَ الدِّينَ يَخْفِقُ قَلْبُهُ وَالْكَفَرُ فِيهِ تَغَطُّسٌ وَعُرَامُ
أَوْرَيْتَ زَنْدَ عِزَائِمٍ تَحْتَ الدُّجَى أَمْرَجْنَ فِكْرَكَ وَالْبِلَادُ ظِلَامُ

وترى في هذا البيت الصلة بينه وبين بيته في قصيدته الأولى في المأمون وهو :
وأرى الأمور المشكلات تمزقت ظلماتها عن رأيك المتوقد
ومنها يذكر الروم وحربه معهم ويصف جيش المأمون :

فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه حسن اليقين وقاده الإقدام

+

سَفَعَ الدُّوْبُ وجوههم فكانهم	وأبوههم سَامُ أبوههم حَامُ
تَحَذُّوا الحديدَ من الدروع معاقلاً	سُكَّنتها الأرواحُ والأجسام
مسترسلين إلى الخُشوفِ كأنما	بينَ الخُشوفِ وبينهم أرحام
أسادُ موتٍ مُخَدِّراتٍ ما لها	إلا الصَّوَارِمُ والقَنَا آجام
حتى نقضت الروم منك بوقعة	شنعاءَ ليس لِنَقْضِها إِبْرَام
في معركٍ أمَّا الحِجَامُ فنفطُرُ	في هَبْؤَتِيهِ والكَاةُ صِيَام
والضربُ يُقْعِدُ كُلَّ قَرْمٍ كَتِيبةٍ	شِرسِ الضَّريبةِ والخُشوفِ قِيَام
فقصمت عُروةَ جميعهم فيها وقد	جَعَلَتْ تَفْصَمُ مِنْ عُرَاها الهَام

+

ما كان للإشراكِ فورةٌ مشهيد	واللهُ فيه وأنتَ والإسلام
لما رأيتهم تساق ملوكهم	حزقا إليك كأنهم أنعام
جرحى إلى جرحى كأن جلودهم	يُطْلَى بها الشَّيْآن والأعلام
متساقطى ورقَ الثيابِ كأنهم	دانوا فأحدثَ فيهم الإحرام
أكرمت سيفك غربةً ودُّبابه	عنهم وحُقَّ لسيفك الإكرام

هذه الأبيات في وصف الحرب، التي لا أجد من نفسى القدرة على مقاومة تأثير جمالها، كانت
أثرا من آثار الحياة الحديدية التي جرَّت إليها أبا تمام ظروف العراق والمشرق .

+

مات المأمون، على ما يقول اليعقوبى، يوم الخميس لثلاث عشرة بقيت من رجب سنة ٢١٨
في الثغور، حيث كان يغزو بين لؤلؤة وطرسوس، لخال الموت بين أبي تمام وبين ما كان ينبغيه .

ولسنا ندرى ماذا نال الشاعر من الخليفة، ولا كيف أستقبل هذا الحادث، وليس في ديوانه رثاء له، ومع ذلك فإن نقص شعر أبي تمام لا يجعلني أقطع بأنه لم يرثه لما مات .

وكان المأمون لما خرج إلى بلاد الروم في محرم سنة (٢١٥) أستخلف على بغداد إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب، وهو ابن عم عبد الله بن طاهر، وولاه مع ذلك السواد، وحلوان، وكور دجلة، فلما مات المأمون بالثغر "كان معه المعتصم، فبايعه القواد، ثم عاد إلى بغداد في مستهل رمضان، فساكاد يستقر بها، حتى خرجت الحمرة بالجبل، فقتلوا وقطعوا الطريق، وأخافوا، وعرضوا لحاج خراسان فهزهوهم، وقتلوا منهم جماعة . فوجه المعتصم إسحاق بن إبراهيم في جيش، وأستخلف إسحاق على الشرط أخاه طاهرا، ونفذ فواقعهم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، وأقام حتى أصلح البلد بعد أن نالته منهم شدة^(١) .

أما مذهب الحمرة هؤلاء، فيحدثنا ابن الأثير حديثا، يفهم منه أنهم كانوا على دين الحرمية، أصحاب بابك الخرمي، وقد سبق حديثي عنهم . فيذكر في حوادث سنة ٢١٨ "أن كثيرا من أهل الجبال، وهمذان، وأصبهان، وماسبذان وغيرها، دخلوا في دين الحرمية، وتجمعوا فمسكروا في عمل همذان . فوجه إليهم المعتصم العساكر، وكان فيهم إسحاق بن إبراهيم المصعبي (ممدوح أبي تمام) ، فعقد له على الجبال في شوال . فسار إليهم فأوقع بهم في أعمال همذان، فقتل منهم ستين ألفا، وهرب الباقون إلى بلد الروم، وقرئ كتابه بالفتح يوم التروية ."

ولقد كان أبو تمام أيام غزو المأمون، بنواحي الثغور، يضطرب بين أذربيجان وإرمينية، ليمدح أبا سعيد محمد بن يوسف، وخالد بن يزيد الشيباني . ويظهر لي أنه نزل إلى الشام فزار أهله، ثم أتجه إلى الشمال ليمدح المأمون بمدائحه السالفة . وينبغي أن نلاحظ هنا أن الدفاع في الثغور، كان خطأ متصلا يبدأ على حدود إرمينية وأذربيجان، ويتجه غربا حتى يصل إلى طرسوس، على ساحل البحر الأبيض . ونجد في التاريخ ما يشير إلى اتصالحكام هذه الثغور جميعا، في الهجوم على أرض الروم، وفي الدفاع عن حدودهم، حتى يكونوا بذلك جبهة مشتركة . ونجد ذلك واضحا في اتصال أبي سعيد الثغري، وقد كان بأذربيجان، وخالد بن يزيد بن مزيد وقد كان بإرمينية، بغزوات الخلفاء حين كانوا يتجهون للهجوم على بلاد الروم . وفي وقت الحرب لا يمكن أن يستقر أحد هؤلاء القواد في مكان واحد . وهذا علة انتقال أبي تمام، وتعدد أشخاص ممدوحيه في الزمن الواحد .

(ج) اتصاله بإسحاق بن إبراهيم المصعبي : لا نعرف أرحل أبو تمام مع الخليفة إلى بغداد، أم بقى في الثغور بعد رحيل الخليفة . إلا أننا نجد له شعرا في مدح إسحق بن إبراهيم المصعبي ، الذي تحدث عنه قبلا ، والذي كان على شرطة بغداد ، ثم أرسله المعتصم لإخضاع الحمرة لما خرجوا بالجلال ، بأعمال همدان ، قال فيه قصيدة يقول جامع الديوان في رأسها إنه قالها يذكر فيها إقطاع إسحق بالحمرة وأصحاب بابك ، وكانوا تواعدوا إلى موضع علم به ، فوقف لهم فيه ، فكل من جاء قتل ، وجرت أذنه ، حتى وجه إلى المعتصم بستين ألف أذن .

ومطلع هذه القصيدة :

خَشِنْتُ عَلَيْهِ ، أُخْتِ بَنِي خُشَيْنِ ! وَأَوْقَعَ فِيكَ قَوْلَ الْعَادِلِينَ
أَنَايَاً وَأَغْتَرَابَا ؟ أَى صَبْرٍ عَلَى الْبَلْوَى يَعْرِضُ بَيْنَ فَيْنِ

يقول منها :

سَلِ الْجَبَلَ الْمَنَعَ حَيْثُ أَخْنَى عَلَيْهِ رُحْرُقًا نَكِيدَ وَحَيْنِ

وقال أخرى مطلعها :

أَصْنَى إِلَى الْبَيْنِ مَقْتَرًا فَلَا جَرَمَا إِنْ النُّوْبَى أَسَاوَتْ فِي عَقْلِهِ لَمَّا

ومنها :

قَوْتُ بِقُرْآنِ عَيْنِ الدِّينِ وَأَشْتَرْتُ بِالْأَشْتَرِّ عِيُونََ الشَّرِكِ فَأَصْطَلِمَا^(٢)
وَبَوْمَ خَيْرَجَ وَالْأَلْبَابُ طَائِرَةٌ لَوْلَمْ تَكُنْ حَامِيَ الْإِسْلَامِ مَا سَلِمَا

ومنها :

غَادَرْتُ بِالْجَبَلِ الْأَهْوَاءَ وَاحِدَةً وَالشَّمْلَ مَجْتَمِعًا وَالشَّعْبَ مَلْتَمِئًا

والبيت الأخير يشبه ما يقوله اليعقوبي من أنه " أقام حتى أصلح البلد " . (وقزان : كما يقول ياقوت قصبة البذين بأذربيجان ، حيث استوطن بابك الخرمي . وخيرج بالراء المهملة — وليست بالزين كما هي في الديوان — موضع) .

وقد قصده أبو تمام وهو بالجلال ، كما بين ذلك من قصيدة ثالثة ، يتحدث فيها عن رحلته إليه ، ويظهر أنها أول قصائده فيه . يقول منها :

(١) اللهم محركة : الجنون (٢) أشر : " ناحية بين نهاوند وحمذان " (ياقوت) . وهم يقولون : البذ والبذين ؛ كما مضى في نص ياقوت ، فلعل أبا تمام ثنى الأشر على قياس ثنيهم البذ .

وإلى جنب أبي الحسين تَشَنَّتْ^(١) بزمامها كالمُصْعَبِ المخطوم^(٢)
جاءتك في مَعِجٍ، خوائف في البرى وعوارفاً بالمُعَلِّمِ المأموم^(٣)
من كل ناجية كأن أديمها حَبِصَتْ ظهارته بجلد أطوم^(٤)
الأبيات ... ومنها يذكّر الجبال :

نَفْسِي فِدَاؤُكَ وَالْجِبَالُ وَأَهْلُهَا في طُرُمَسَاءَ من الحروب بهيم
بِالدَّوْذِيَّةِ وَخَيْرِجٍ وَذَوَاتِهَا عَهْدٌ لِسَيْفِكَ لَمْ يَكُنْ بِذَمِيمٍ
ومنها يذكّر استعمال المأمون له ، ثم المعتصم من بعد المأمون :
إِنِّ الْحَلِيفَةَ وَالْحَلِيفَةَ قَبْلَهُ بَلَوَاكَ تَرْبَ نَصِيحَةٍ وَعَزِيمٍ
ومنها أيضاً ما يدل أنه قصده :

مَشَتْ الْخَطُوبُ الْفَهْقَرَى لِمَا رَأَتْ خَبِيَّ إِلَيْكَ مُؤَكِّدًا يَرْسُمِي

يقول الصولي في أخباره " ما كان أشغف بشعر أبي تمام من إسحق بن إبراهيم المصعبي^(٥) " ومع ذلك فقد اختلف معه أبو تمام بعد هذه المرة بزم في سر من رأى فهجاه .

١٠ - أبو تمام في نخراسان

في خلال ذلك يكون عبد الله بن طاهر والياً على نخراسان والمشرق ؛ وهو يومئذ من أكبر الناس . ولى المشرق منذ مات أبوه طاهر بن الحسين سنة ٣٠٧ ، فندب لحكمه أخاه طاحنة ، فظل حاكماً به إلى أن مات سنة ٣١٣ . فأنحدر عبد الله إلى نخراسان ، وقد خرج بها خوارج أوقعوا بأهل قرية الحمراء ، من أعمال نيسابور . فهدد الأرض ، ودخل نيسابور ، كما يقول ابن خلكان ، في رجب سنة ٣١٥ ، وقد أمسك الغيث ، فأمطرهم السماء . وكان جواداً ، كريم النفس . وله في ذلك حكايات تشبه الحكايات التي تروى عن العرب في عصر بطواتهم الذهبية^(٥) . ولد سنة ١٨٢ ، وتآدب في صغره ، وقرأ العلم والفقه ، وسمع من وكيع ، وعبد الله المأموم ؛ وروى عنه إسحق بن راهويه ،

(١) تشنت الناقة : جدت في السير . والمصعب : الفحل . والمخطوم : البعير وقد جعل الخطام على أنفه .

(٢) المعج : السرعة . والخائف من الدراب ما أمال رأسه في سيره إلى فارسه . المعلم : المعروف المشهور . والمأموم : المقصود .

(٣) الناجية : الناقة السريعة . وحبصت : خيطت . والظهارة : ضد البطانة . والأطوم : السلحفاة .

(٤) ورقة ١٠٨ (٥) ارجع إلى بعضها في النجوم الزاهرة (ج ٢ ص ١٩١ وما بعدها) .

وهو أكبر منه، ونصر بن زياد، وخلق سواهم . وكان بارع الأدب، حسن الشعر . وتقلد الأعمال الجلييلة وأول ولايته مصر . ويعتده آستانى لين بول فى كتابه « تاريخ مصر فى القرون الوسطى » من أشهر قواد عصره .

(١) الرحلة إلى نحر اسان : وقد عرفه أبو تمام ، وقال فيه شعرا ، لما كان فى مصر (سنتى ٢١٠ و ٢١١) لإخضاع ابن السرى ، وطرده الاندلسيين من الأسكندرية .

ويظهر أن أحداث العراق قد شغلت أبا تمام منذ سنة ٢١٤ حتى هذا العهد، (سنة ٢١٩)، عن الذهاب إلى ابن طاهر . فإلى أن يموت المأمون، ويعود المعتصم عن الثغور إلى بغداد، حتى يذكر أبو تمام ابن طاهر، فيأخذ فى السير إليه .

يأخذ فى السير إليه، وفى صدره آمال تبعث به إلى أن يقول لأحد ممدوحيه بالثغور، (محمد ابن المستهل)، فى قصيدة يمدحه فيها :

أنا راحل ببلاد مَرُورٍ رَكِبْتُ فى جودَةِ الأشعارِ كلِّ مجيدِ
ثم يطلب منه فرسا يستعين به على قطع طريقه :

فأعزَّ ذِلَّةَ رِحْلَتِي بِمَهْدٍ حلوى الخَيْلِ مَقْدُودِ
ويسير حتى إذا بلغ قُومِسَ، وقد طالَّت عليه الشُّقَّة قال :

يقول فى قُومِسَ صحبى ، وقد أخذت منى السَّرى وخُطَا المَهْرِيةِ القُودِ
أمطعَ الشمس تبغى أن تؤم بنا فقلتُ كلاً ولكن مَطْعَ الجُودِ

(ب) أولى قصائده فى ابن طاهر : يقول ابن خلكان : فلما وصل إليه أنشده قصيدته

البديعة البائية، التى يقول فيها :

ورَكِبَ كأَطرافِ الأَسنةِ عَرَسوا على مثلها والليلُ تبدو غياهِبةُ
لِأمرٍ عليهم أن تَمَّ صُدُورُهُ وليس عليهم أن تَمَّ عواقِبُهُ

ومطلع هذه القصيدة :

هُنَّ عِوَادى يوسُفَ وصِواحِبُهُ فعزما فِقْدَمًا أدركَ السُّؤْلَ طالِبُهُ
إذا المرءُ لم تستخلص الحِزْمَ نَفْسُهُ فليُروته للحادِثاتِ وغارِبُهُ

ويقول صاحب الأغاني : إن أبا تمام لما قدم إلى خراسان ، اجتمع الشعراء إليه ، وسألوه أن ينشدهم . فقال : قد وعدني الأمير أن أنشده غدا ، وستسمعونني . فلما دخل على عبد الله أنشده :

* هن عوادي يوسف وصواحيبه *

فصاح الشعراء بالأمير أبي العباس : ما يستحق مثل هذا الشعر غير الأمير أعزه الله . وقال شاعر منهم ، يعرف بالرياحي : لي عند الأمير جائزة وعدني بها ، وقد جعلتها لهذا الرجل ، جزاء عن قوله للأمير . فقال : بل نضعفها لك ، ونقوم له بما يجب علينا . والقصيدة تنطق عزما ، وإقداما ، وأملا . وهو فيها يروض نفسه على الرجل ، في سبيل تحقيق أمله . وقوة عزيمته فيها ، واختفاء ذلك الروح الحزين اليأس من غزلها ، ليس إلا رد فعل لذلك النجاح الذي لقيه في سنيه التي قضاه في العراق والنفور .

يقول منها لعادته في جلد وإصرار ، وأغلب الظن أنها زوجه :

وأخشن منه في الملمات راكمه	أعاذلتي ! ما أخشن الليل مرآجا
فأهواله العظمى تلها رغبه	ذريني وأهوال الزمان أفانها
أخو النجح عند الحادثات وصاحبه	ألم تعلمي أن الزمان على السرى
هي الوقر أو سرب ترين نوادبه	دعيني على أخلاق الصم للتي
خشونته ما لم تفعل مضاربه	فإن الحسام الهندواني إنما
فقلت : أطمئني ، أنضر الروض عازبه	وقلقل نأى من خراسان جاشها

ثم يقول في وصف رحلته إلى عبد الله ، وهي عادته حين يرحل إلى ممدوحه :

وركب كأطراف الأسينة عرسوا	على مثلها ، والليل تبدو غياهبه
لأمير عليهم أن تتم صدوره	وليس عليهم أن تتم عواقبه
على كل موار الملائم تهدمت	عريكته العلياء وأنضم حاليه
رعته الفياق بعد ما كان حقبه	رعاها ، وماء الروض ينهل ساكه
فأضى الفلا قد جد في بري تحضيه	وكان زمانا قبل ذلك يلاعبه
فكم جزع وإد جب ذروة غارب	وبالأمس كانت أتمكنه مدانبه
إليك جزعنا مغرب الملك كلما	وسطنا ملا صلت عليك سبابه

ولا أراه إلا قد وُفق في تصوير الرحلة ، وذلك الليل الرهيب الأسود ، وفي ذلك المس الرقيق للقلب ، بتعريجه على الطبيعة يصف أنهلال ساكبها ، في لفظ عذب رقيق . وهو بين ثنايا هذا الوصف ، الرائع الأخاذ ، الذي آسَمَدَه من طريقه إلى ابن طاهر ، لا ينسى عقله ولا يغفل عن فنه الذي تمازج فيه الفكرة الشعور :

لَأَمْرِ عَلَيْهِمُ أَنْ تَمَّ صَدُورُهُ وليس عليهم أَنْ تَمَّ عَوَاقِبُهُ

(ج) مغاضبة ابن طاهر إياه : ولقد نقلت ما كتبه صاحب الأغاني ، في كيف أستقبل الشعراء هذه القصيدة ، وأزيد عليه قوله : ” إنه لما فرغ أبو تمام من القصيدة ، ثر عليه عبد الله ألف دينار فلم يمس أبو تمام منها شيئا ، وأثقتها الغلمان . فوجد عليه عبد الله ، وقال : يترفع عن برى ، ويتهاون بما أكرمه به ، فلم يبلغ ما أراد منه بعد ذلك “ .
ويروى الصولى إلى هذا سببين آخرين لغضب عبد الله .

أحدهما : أن أبا تمام حُجز على بابه مدة ، هو وجماعة ، فكتب إليه شعرا :

أَيْهَذَا الْعَزِيزُ قَدْ مَسَّنَا الضَّرُّ رُجِيعاً وَأَهْلَنَا أَشْنَاتُ

الأبيات . وقد ذكرتها قبلا . فعضب عبد الله من محاكاته القرآن .

والثاني : ” وقيل : بل إن أبا تمام ، لما دخل أبرشهر ، هوى بها مغنية كانت تغنى بالفارسية ، وكانت حاذقة طيبة الصوت . فكان عبد الله كلما سأل عنه ، أخبر أنه عندها . فنقص عنده “ .

(د) تحقيق السبب في غضب عبد الله بن طاهر : هذه جملة الأسباب التي ينسبون إليها فساد ما بين عبد الله بن طاهر وأبي تمام ، وليست تقبلها النفس جميعا قبولا سهلا ؛ فإن كبرياء أبي تمام وأنفته أن يلتقط الدنانير الملقاة على الأرض ، ليست من الأمور التي تحتاج نفسا كريمة كنفس عبد الله ؛ ولأن غضب عبد الله يغلب أن يكون قد سبق إلى أبي تمام قبل أن يقول شعره الذي يقتبس فيه من القرآن ، كما يظهر من قولهم : إنه كان محجوزا قبل قوله ببابه مدة . كما أنه ليس في قوله ما يجرح شعور مسلم . ولأن حب أبي تمام مغنية ، وتردده عليها ، وإن يكن من الأمور التي يستنكفها أمير كعبد الله ، إلا أن معرفته بأخلاق أبي تمام الشاعر تخفف من أثره . وفي تاريخ هذا العصر ما يشبه ذلك . فقد كان أبو نواس شاعر الرشيد ، وهو أكثر الناس مجونا وفسقا .

ولكن هناك شيئا آخر، هو أنهم من هذه جميعا، فقد نزل أبو تمام خراسان، فدح عبد الله بالقصيدة السابقة، وأستقبله عبد الله وشعراؤه ذلك الاستقبال الجميل، ورحب به ترحيبا حقق هذه الآمال التي كان يعقدها عليه أبو تمام في مقدمه . فكان غضبة عبد الله إنما جاءت بعد مقدم أبي تمام خراسان، وبقائه فيها زمنا طويلا أو قصيرا .

لما نزل أبو تمام خراسان، أخذ يحب أنحاءها .

يسقطُ الطيرُ حيثُ يلتقطُ الحبَّ . بُ وتغشى منازلُ الكرماءِ

فدح من يدعى عبد الله، حفص بن عمر الأزدي، وكان رئيسا من رؤساء العرب في ذلك الإقليم بقصيدة مطلعها :

عَفَّتْ أَرْبَعُ الْحِلَالِ لِلْأَرْبَعِ الْمُدِّ لِكُلِّ هَضِيمِ الْكَشْحِ، مَجْدُولَةُ الْقَدِّ

ويسير أبو تمام في قصيدته هذه، فيصف حفصا بالبأس والقوة، ويصف قدرته على قيادة قومه في الحرب، ثم يأخذ بعد ذلك في إبداء صفحة من التاريخ . فيصف لنا نزاعا، من نوع ذلك النزاع الذي كان يشب من آونة لأخرى بين العناصر المختلفة في تلك الدولة الواسعة . فيصور ما كان بين الفرس والعرب من خصومة قامت يومئذ، ويشير إلى انقسام في صفوف العرب، بين خطائين وعدنانيين، وإلى أن حفصا هذا جمع بينهم . قال أبو تمام :

وَأَنْتَ وَقَدْ نَجَّتْ خِرَاسَانُ دَاءَهَا	وَقَدْ نَغَلَتْ أَطْرَافُهَا نَغْلَ الْجَلْدِ ^(١)
وَأَوْبَاشُهَا نُحِرٌ إِلَى الْعَرَبِ الْأَلَى	لِكَيْمَا يَكُونَ الْحَرُّ مِنْ خَوْلِ الْعَبِيدِ
وَمَا قَصَدُوا إِذْ يَسْعَبُونَ عَلَى الْمَنَى	بُرُودَهُمْ إِلَّا إِلَى وَارِثِ الْبُرْدِ
وَرَامُوا دَمَ الْإِسْلَامِ لَامِنَ جَهَالَةٍ	وَلَا خَطَأَ، بَلْ حَاوَلُوهُ عَلَى عَمْدِ
فَفَجَّوْا بِهِ سَمًّا دُعَاقًا وَلَوْ نَأَتْ	سَيُوفُكَ عَنْهُمْ، كَانَ أَحْلَى مِنَ الشَّهِيدِ
ضُمَّتْ إِلَى خَطَّانَ عَدْنَانَ كُلِّهَا	وَلَمْ يَجِدُوا إِذْ ذَاكَ مِنْ ذَاكَ مِنْ بُدِّ
فَأَضْحَتْ بِكَ الْأَحْيَاءُ أَجْمَعَ أُلْفَةٍ	كَمَا أُحْكِمَتْ فِي النِّظْمِ وَاسِطَةُ الْعَقْدِ
وَكُنْتَ هُنَاكَ الْأَحْنَفَ الطَّبَّ فِي بَنِي	تَمِيمِ بْنِ مُرَّةٍ، وَالْمَهَابَّ فِي الْأَزْدِ
وَكُنْتَ أَبَا غَسَّانَ مَالِكَ وَائِلَ	عَشِيَّةَ دَانِي حِلْفُهُ الْحِلْفَ بِالْعَقْدِ

هذه الأبيات ، على ما أرى ، هي التي أغضبت عبد الله بن طاهر على أبي تمام . فقد كان عبد الله ينحدر من أصل فارسي ، فأبوه طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن ماهان ، وفي رواية أخرى زريق بن أسعد بن راذويه ، وفي رواية ثالثة : أسعد بن زاذان . كما يقول ابن خلكان .

ويقول عن جده مصعب أو عن طاهر نفسه - ففي العبارة ما يفهم منه الأمران - "إنه كان خراعيًا بالولاء" . ويقول اليعقوبي في ترجمته : "البوشنجي" . وبوشنج بقرب هراة في خراسان .

فإذا قال أبو تمام عن فارس خراسان ، وهم الذين كانوا يترقبون الفرصة للوثوب :
وَأَوْبَاشُهَا نُحْزَرُ إِلَى الْعَرَبِ الْأُلَى لِكَيْمَا يَكُونَ الْحُرُّ مِنْ خَوْلِ الْعَبْدِ
أحس عبد الله أمر ما يحسه الإنسان إذا مُسَّتْ قوميته .

وإذا قال أبو تمام :

لِيَأْلَى بَاتَ الْعِزُّ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ وَعُظْمُ وَغْدُ الْقَوْمِ فِي الزَّمَنِ الْوَعْدِ

وكان الأمير عبد الله من هؤلاء الذين يدعوهم أبو تمام بالأوغاد ، وأبو تمام هذا هو صاحب الأنفة العربية ، التي قد تكون أثارت بنفس عبد الله شيئاً ، حين استكبرت على عطائه وجزائه ، فإن هذا يصبح جارحاً ثقيلاً .

وإذا قال أبو تمام ، وإن قصد بها إلى غير عبد الله :

وَمَا قَصَدُوا إِذْ يَسْحَبُونَ عَلَى الْمُنَى بَرُودَهُمْ إِلَّا إِلَى وَارِثِ الْبُرْدِ

وكان الحسين بن طاهر هو خالع الخليفة المأمون ، وتارك الدعاء له على المنبر في سنة ٢٠٧ ، وجد عبد الله في هذا البيت شيئاً من السعاية الخبيثة به ، هو بلا ريب كاره صاحبها وحاجبه عنه . قد يكون أبو تمام قصد إلى هذا ، وقد لا يكون قصد إليه ، وإنما كان أندفاعه في مدح صاحبه العربي ، ولكن مالا أكاد أشك فيه ، هو أن هذه الأبيات تغضب رجلاً يمت إلى الفارسية بسبب . ويظهر أن عبد الله لم يصرح بسبب غضبه هذا ، ضنا بنفسه أن ينسب إلى عصبية . فلم يعرف أبو تمام ، أو لم يجرؤ أن يعتذر عنها هيبه . ولكن أبا تمام أتى خراسان ممثلاً أملاً وعزماً ، فعز طيه أن يعود صفر اليدين ، فبقي يضرب في أنحاء خراسان . فقتل أبرشهر ، وأحب تلك المغنية ، وشغف بحبها حتى ما كان يكاد يفارقها ، كما مضى في أخبار الصولي ، وقال فيها شعراً :

أَيَا سَمَرِي بِلَيْلَةٍ أَبْرَ شَهْرٍ ذَمَّتْ إِلَى نَوْمِي فِي سِوَاهَا
شَكَرْتُكَ لَيْلَةً حُسْنَتْ وَطَابَتْ أَقَامَ سُرُورُهَا وَمَضَى كَرَاهَا
إِذَا وَهَدَاتُ أَرْضٍ كَانَ فِيهَا رِضَاكَ، فَلَا تَحِجُّ إِلَى رُبَاهَا
سَمِعْتُ بِهَا غِنَاءً كَانَ أَحْرَى بَأَنْ يَقْتَادَ نَفْسِي مِنْ عَنَاهَا
وَمُسْمِعَةٍ تَقُوتُ السَّمْعَ حُسْنًا وَلَمْ تُصِمِعْهُ لَا يُصْنَمُ صَدَاهَا
مَرَّتْ أَوْتَارُهَا فَشَجَّتْ وَشَاقَتْ فَلَوْ يَسْطِيعُ سَامِعُهَا فَدَاهَا
وَلَمْ أَفْهَمْ مَعَانِيهَا وَلَكِنْ وَرَتْ كَيْدِي، فَلَمْ أَجْهَلْ شَجَاهَا
فَبِتُ كَأَنِّي أَعْمَى مُعْنَى بِحَبِّ الْغَانِيَاتِ وَمَا يَرَاهَا

(هـ) محاولته لإصلاح ما بينه وبين ابن طاهر : ولم يغفل الأمير خلال ذلك عن الشاعر ، فكان يسأل عنه فيخبر أين هو ، ويظهر أن أبا تمام كان بعث إليه برقعة فيها شعره ، فلم يجبه عبد الله ، فقال مرة ثانية يمدحه ، ويوسط بينه وبينه ، شاعره أبا العميثل :

لَيْتَ الظُّبَاءِ أبا الْعَمَيْثِلِ خَبُرْتُ خَبَرًا يَرْوِي صَادِيَاتِ الْهَامِ

ولست أرى ما هو مكتوب في رأس القصيدة بالديوان من أنه قالها ، لأن عبد الله كان وقع له بشيء فتأخر عنه . ولقد طال بقاءه في خراسان ، وحل عليه وهوبها الشتاء ، وكان قارس البرد فقال :

لَمْ يَبْقَ لِلصَّيْفِ لَارِسٌ وَلَا طَلٌّ وَلَا قَشِيبٌ فَيَسْتَكْسِي وَلَا سَمَلٌ
عَدْلٌ مِنَ الدَّمْعِ أَنْ يَبْكِيَ الْمَصِيفُ كَمَا يُبْكِي الشَّبَابُ وَيُبْكِي اللَّهْوُ وَالْغَزَلُ

والبيتان يريان مقدار حاجته في ذلك الشتاء . وأخذ يحل به اليأس ، وتنهار آماله ، التي بناها وهو آت ، وأحس وحدته وغربته ، فأخذ يبكيها جميعا :

صَرِيحٌ هَوَى تُغَادِيهِ الْهُمُومُ بَنَيْسَابُورَ آيسٍ لَهُ حِمِيمٌ
غَرِيبٌ لَيْسَ بِؤْنِسِهِ قَرِيبٌ وَلَا يَأْوِي لِغَرِيبَتِهِ رَحِيمٌ
مَقِيمٌ فِي الدِّيَارِ نَوَى شَطُونٌ يَشَافَهُ بِهَا كَدُّ قَدِيمٍ
يُمَدُّ زِمَامُهُ طَمَعٌ مَقِيمٌ تَدْرَعُ ثَوْبَهُ رَجُلٌ عَدِيمٌ
رَجَاءٌ مَا يَقَابِلُهُ رَخَاءٌ هُوَ الْيَأْسُ الَّذِي عَقْبَاهُ سُومٌ

ثم يذكر أهله وداره بالشام؛ وقد رأينا كيف تركها إلى خراسان أول الأمر، مليئاً بالعزم والأمل:

فقد فارقْتُ بالغرْبِ داراً بأرض الشام خَفَّ بها النعمُ
وكنْتُ بها المنعَ غيرَ وَغْدٍ ولا نِكِدٍ إذا حلَّ العَظِيمُ
فإنَّ أَلْكَ قد حلَّتْ بِدارِ هَوْنٍ صَبَوْتُ بها فقد يصبو الحكيمُ
أَلُومَكَ لا أَلُومَ سِوَاكَ دَهْرَا قضى لي بالذي يقضى سَدُومُ^(١)
إذا أنا لَمْ أَلَمْ عَثَرَاتِ دَهْرٍ أَصِبتُ بها الغدَاةَ قَنَّ أَلُومُ
وفي الدنيا غِنًى لَمْ أَنْبُ عنه ولكن ليس في الدنيا كريم

(و) رضا ابن طاهر: ولم ينقطع أبو تمام عن باب ابن طاهر في خراسان، وحلت سنة

٢٢٠ وهو فيها. يقول جامع ديوان أبي تمام، إن أبا تمام كان ينسأ بور، على باب عبد الله بن طاهر، نخرج أبو العميشل حاجبه برقة فيها بيتان من شعر فالحما عبد الله؛ فقال لأبي تمام: قل في معنى هذين البيتين ووزنهما، وهما في الأفشين. وكان يحارب بآبك في مدينة أرسق. والأفشين وجه إلى حرب بآبك سنة ٢٢٠، وفيها كانت موقعة أرسق هذه. وكأنما كان عبد الله يريد بذلك إرغام أبي تمام على مدح أعجمي فخ، أنتقاماً منه، وتنكيلاً بتلك العصبية التي دفعت بأبي تمام إلى قول شعره السابق، فقال أبو تمام قصيدته:

غدا المُلْكُ معمورَ الحرِّ والمنازلِ منورَ وَحْفِ الرِّوضِ عذب المناهِلِ^(٢)

وهذه القصيدة أول شعر قاله في مدح الأفشين. وكأنما أحس أبو تمام لذلك كرها، فبدأ القصيدة بمدح الخليفة، وختمها بمدح الخليفة، ومدح فيما بين ذلك الأفشين. ومن هذه القصيدة الأبيات المشهورة:

تَسْرِبَلُ سِرْبَالاً مِنَ الصَّبْرِ وَارْتَدَى عَلَيْهِ بَعْضُ فِي الكَرِيهِةِ فَاصِلِ
وقد ظَلَلْتُ عِقبَانُ أَعْلَامِهِ ضُحًى بِعِقبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلِ
أَقَامَتْ مَعَ الرَايَاتِ حَتَّى كَانَتْهَا مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَقَاتِلِ

(١) سدوم: يقال أجور من قاضى سدوم. وسدوم قرية قوم لوط، أو بلد بمصر مسمى باسم ملك ظالم.

(٢) الحر والحراة الناحية والوحف من النبات: الریان.

ويظهر أن الأبيات السابقة إلى أبي العميث قد عملت عملها . يقول الصولي " فدخل على عبد الله بن طاهر ، فقال له : أيها الأمير ! والغضب على من حمل إليك أملة من العراق ، وكذّ فيك جسمه وفكره ، ومن يقول فيك :

* يقول في قوميس صَحِيٍّ وقد أخذت * البيتان

قال : فدعا به وناداه يومه ذلك ، وخلع عليه ، ووهب له ألف دينار وخاتماً^(١) .

ولم يكن مع ذلك يسلم من عنت عبد الله . ينقل الصولي عن المبرد أنه قال : " مات أبنان لعبد الله بن طاهر في يوم واحد ، فدخل عليه أبو تمام ، فأنشده :

ما زالت الأيامُ تخبرُ سائلا أن سوف تفجع مُسْهِلا أو غافلا
إلى أن بلغ منها قوله :

لو يَنْشَأَنَّ لَكَ هَذَا غَارِبَا لِلْكَرُمَاتِ وَكَانَ هَذَا كَاهِلَا
إِنَّ الْهَلَالَ إِذَا رَأَيْتَ نُمُوَّهُ أَيْقَنْتَ أَنَّ سَيَكُونُ بَدْرَا كَامِلَا

قال : فلما سمع عبد الله ذلك ، وكان يتعنته كثيرا ، قال : قد أحسنت ، ولكك تؤسفني وليس تعزيني ، فلما قال :

قُلْ لِلْأَمِيرِ وَإِنْ لَقِيتَ مُوقَرًّا مِنْهُ بَرِيْبُ الْحَادِثَاتِ حُلَا^(٢)حِلَا
... الأبيات . قال : الآن عزيت .

يقول الصولي : " وحلّ الشتاء ، فاشتد عليه أمر البرد ، فقال شعره الماضي في الشتاء " .

١١ - في أذربيجان ثانية

مع أبي سعيد الثغري في حروب بابك : كان بدء المحرم من سنة ٢٢٠ يوافق (١٠ طوبه سنة ٥٥١ هـ و ٥ يناير سنة ٨٣٥) أي أن أول تلك السنة وقع في قلب الشتاء . وقد وجه المعتصم في هذه السنة بالأفشين لحرب بابك ، بعد أن عقد له على الجبال . وقبل ذلك ، كان أبو سعيد ، محمد بن يوسف الطائي بأذربيجان بأمر المعتصم . فيقول الطبري : " إنه لما أفضى الأمر إلى المعتصم ، وجه أبا سعيد إلى أردبيل ، وأمره أن يبنى الحصون التي نهبا بابك فيما بين زنجان وأردبيل ، ويجعل فيها الرجال مسلح ، لحفظ الطريق لمن يجلب الميرة . ففعل . ووجه بابك سرية

(٢) الخلاخل : السيد الشجاع أو الرزين .

(١) ورقة ١٠٣

له في بعض غاراته ، وصير عليهم رجلا اسمه معاوية ، فأغار على بعض النواحي ، ورجع منصورا . فبلغ ذلك أبا سعيد ، فخرج إليه وواقعه ، وهزمه ، وهى أول هزيمة على أصحاب بابك .

فلما جاء الأفشين أذربيجان ، كان من بين قواده أبو سعيد . وقد أنزله برستاق يسمى (خش) ، وأنزل قائدا آخر برستاق (أرشق) . وفي هذه السنة (٢٢٠) ، كانت بين بابك والمسلمين موقعة مشهورة في شعر أبي تمام ، يذكرها دائما في مدحه أبا سعيد ، وهى موقعة أرشق . يقول ابن الأثير : " وفيها هزم بابك ، ولم يفلت من رجاله أحد ، وأفلت هو في نفر يسير من خيالته ، ودخل موقان وقد تقطع عنه أصحابه ، ورجع عنه الأفشين إلى برزند " ، وأقام بابك بموقان ، وأرسل إلى البذ ، بجاءه عسكر ، فرحل بهم من موقان حتى دخل البذ .

وقد رأينا أبا تمام قبل الآن في خراسان ، عند عبد الله بن طاهر يقول شعرا في موقعة أرشق هذه ، وفي الأفشين . فكأنه لم يشهد أرشق في أذربيجان . ولكن شعره الذى قاله في أحداث هذه الفترة ، مذكور فيه ما يفهم أنه قاله قبل أن يؤخذ بابك . وبابك إنما أخذ سنة ٢٢٢ ، فلما أخذ قال أبو تمام في ذلك شعرا .

ترك أبو تمام خراسان بعد زمن موقعة أرشق في سنة ٢٢٠ ، راحلا إلى أذربيجان ، حيث كان صاحبه أبو سعيد الطائى ينتصر في الحرب مع الأفشين على بابك . ويظهر أن أبا تمام أخذ يجد بعد سنة ٢١٤ لذة في شهود هذه المعارك ، الدائرة رحاها بين المسلمين وغيرهم . جاء إليها فظل بقية سنة ٢٢٠ وطيلة سنة ٢٢١ ، يستمد شعره في ممدوحه أبى سعيد ، من انتصاره أول مرة على معاوية قائد بابك ، ومن بلائه في موقعة أرشق . جاء إلى أبى سعيد وهو يذكر أن أول نجاح قد لقيه في هذه الناحية ، فتجدد عزيمته ، ونسمع من غزله في أول قصيدة له في أبى سعيد بعد رجعه ، تلك النعمة التى سمعناها منه أول مقصده أبى طاهر ، أيام كان يمتلئ أملا وعزما . يبدوها بقوله :

غَدَتْ تَسْجِيرُ الدَّمْعِ خَوْفَ نَوَى غَدٍ وَعَادَ قَتَادًا عِنْدَهَا كُلُّ مَرْقَدٍ

ومنها :

وَلَكِنِّي لَمْ أَخَوِ وَفَرَا جُجَعًا فُزْتُ بِهِ إِلَّا بِشَمْلِ مَبْدَدٍ

وَلَمْ تَعْطِنِي الْأَيَّامُ نَوْمًا مُسَكَّنًا أَلَّذُ بِهِ إِلَّا بِنَوْمِ مَشْرِدٍ

(١) يقول ياقوت : برزند : الدال مهملة : بلد من نواحي تفليس من أعمال جرجان من إرمينية الأولى . كان أول من عمرها الأفشين ، وجعلها معسكرا له بعد أن كانت خرابة . ويعدّها أبو سعد من نواحي أذربيجان .

وطولُ مقامِ المرءِ في الحى مُخلَقٌ لِدَيْبِاجَتِيهِ فَأَعْتَرِبَ تَجَدَّدِ
فإني رأيتُ الشمسَ زِيدتْ محبةً إلى الناسِ أنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرَدِ

ومنها يذكر محمد بن حميد الطوسي ، قتل سنة ٢١٤ ولم يكن نسيه :

لقد كَفَّ سَيْفُ الصَّامِتِيٍّ مُحَمَّدٍ تَبَارِيحُ نَارِ الصَّامِتِيٍّ مُحَمَّدٍ

والصامتيون جماعة من طيئ ، منهم محمد بن يوسف ، وهو المقصود في الشطر الأول ، ومحمد

أبن حميد ، وهو المقصود بالشطر الثاني ، ثم يذكر هزيمة معاوية التي تحدثت عنها :

عدا الليلُ فيها عن معاوية الردى وما شكَّ ريبُ الدهرِ في أنه رَدِي^(١)

ثم يقول في موقعة أرسق ، وهرب بابك إلى موقان :

وفي أَرَشَقِ الهِجَاءِ وَالخَيْلُ تَرْمِي بِأَبْطَالِهَا فِي جَاحِمٍ مَتَوَقِّدِ
عَطَطْتُ عَلَى رَغْمِ الْعِدَا عِزْمَ بَابِكِ بِعِزْمِكَ عَطَّ الْأَتْخَمِيُّ الْمُعْضِدِ
فَإِنْ لَا يَكُنْ وَلِيٌّ بِشُلُوِّ مَقْدَدِ هُنَاكَ قَعْدٌ وَلِيٌّ بِعِزْمِ مَقْدَدِ
وَقَدْ كَانَتْ الْأَرْمَاحُ أَبْصُرْنَ قَلْبَهُ فَأَرْمَدَهَا سِتْرُ الْقَضَاءِ الْمُسَدِّ
وَمُوقَانَ كَانَتْ دَارَ هَجْرَتِهِ فَقَدْ تَوَرَّدَتْهَا بِالْخَيْلِ أَيْ تَوَرَّدِ
حَطَطْتُ بِهَا يَوْمَ الْعَرُوبَةِ عِزَّهُ وَكَانَ مَقِيمًا بَيْنَ نَسِيرٍ وَفُوقِ
رَأَى سَدِيدَ الرَّأْيِ وَالرَّحَى فِي الْوُغَى تَأَزَّرُ بِالْإِقْدَامِ فِيهِ وَتَرْدِي

ويقول في وصف هربه :

فَرَّ مَطِيعًا لِلْعَوَالِي مُعَوِّدًا مِنْ الْخُوفِ وَالْإِحْجَامِ مَا لَمْ يُعَوِّدِ

ثم يتحدث في آخرها عن رحلته إلى أبي سعيد :

إِلَيْكَ هَتَكَا جُنَحٌ لَيْسَ كَأَنَّهُ قَدْ اكْتَحَلَتْ مِنْهُ الْبِلَادُ بِإِثْمِ

إلى آخر القصيدة .

تظل شاعرية أبي تمام تستمد فيضها من هذه الوقائع ، بين أبي سعيد و بابك ، حتى سنة ٢٢٢ حين يؤخذ بابك . غير أن حضوره الوقائع بعد أرسق ، ورؤيته الجيوش تتحرك وتقاتل ، يعطيه ما يضيفه إلى ما في القصيدة السابقة من نواح طرفها . يأخذ في وصف الجيش على ما يراه . وليس وصف الجيوش جديدا لديه فنسمعه في قصيدته :

(١) يقال : عدا عن الأمر عدوا وعدوانا : صرفه وشغله .

يأبُعدُ غايةَ دَمْعِ العَيْنِ ما بعدُوا هي الصبابة طولَ الدهرِ والسَّهْدِ

يقول :

لَقِيَتْهُمْ والمنايا غيرُ دافعةٍ لما أَمَرَتْ بِهِ ، والمُلتقى كَبَدُ
في مَوْقِفٍ وَقَفَ الموتُ الذُّعَافُ به فالمجْدُ يُوْجَدُ والأرواحُ تُفْتَقَدُ
في حيثُ لا مَرْتَعُ البَيضِ الرِّقاقِ ، إذا أَصْلَتِ ، جَذِبَ ولا وِرْدَ القَنَا مَدُّ^(١)

إلى أن يقول :

صَدَّعتْ جِرْيَتَهُمْ في عُصْبَةٍ قُلِّ قد صَرَّحَ الماءُ عنهم وأنجلى الزَبَدُ^(٢)
مِنْ كُلِّ أَرْوَعٍ تَرَفَّاعُ المَنْوُونُ له إذا تَجَرَّدَ لا نَكْسُ ولا جَحْدُ
يَكادُ حينَ يَلَاقِي القِرْنَ مِنْ حَنَقٍ قبلَ السَّنانِ على حَوَائِثِهِ يَسِرْدُ
قَلَّوا ولكنَّهُم طابوا فأنجَسَدَهُم جيشٌ مِنَ الصَّبْرِ لا يُحْصَى له عَدَدُ
إذا رَأَوْا لَدُنَا عَارِضاً ابْسُوا مِنَ اليَقِينِ دُرُوعاً ما هَا زَرَدُ
ناوَا عَنِ المَصْرَاحِ الأَدْنَى فليسَ لَهُم إلا السَّيُوفُ على أَعْدائِهِم مَدَدُ

ثم يذكر معاوية :

وَلَى معاويةٌ عَنْهُمْ وقد أَخَذَتْ فِيهِ القَنَا فأبى المَقْدَارُ والأَمِيدُ
نَجَّاكَ في الرُّوجِ ما نَجَّى سَمِيكَ في صَفِينٍ ، والخيلُ بالأبطالِ تَجَرَّدُ
إِنْ تَنَفَّلْتَ وَأَنُوفُ الموتِ رَاغِمَةٌ فَأَذْهَبَ فَأَنْتَ طَلِيقُ الرِّكْضِ يالْبُدُ

ومنها يذكر بابك :

كَأَنَّ بَابَكَ بالبَدِينِ بَعْدَهُم نُؤَى أَقامَ خِلافَ الحَيِّ أو وَتَدُ

وق هذه الفترة قال قصيدته :

أَبَى فَلَا شَذْباً يَهْوَى وَلَا فَلَجاً وَلَا أَحْواراً يراعِيهِ وَلَا دَعَجاً

(١) التمد والتد محركة : الماء القليل .

(٢) في طبقات الديوان جرية : وجرية مصدر جرى يقال : جرى جرياً وجريانا وجرية . وأولى بها أن تكون جرية بالباء المقطوعة بوحدة حتى ينسق مع عبارته (صدعت) . والجربة : بالكسر جملة توضع على شفير البئر حتى لا ينثر الماء فيه ثانية بعد ما خرج منه . فهي أشبه منه بالوفاء . إن تصدع آثا مازر . والقلل : القليل العدد .

ومما يدل على أنها قيلت قبل أخذ بابك قوله منها :

إِنْ يَنْجُ مِنْكَ أَبُو نَصِيرٍ فَعَنْ قَدَرٍ تنجو الرجال ولكن سَلَهُ كَيْفَ نَجَا
قَدْ حَلَّ فِي صَخْرَةٍ صَمَاءٌ مُعْتَقَةٌ فانحَتْ بِرَأْيِكَ فِي أَوْعَارِهَا دَرَجَا^(١)

ومنها يذكر محمد بن حميد :

تَنْبِيءُ مُحَمَّدٍ النَّاسِ رَمَاحُهُمْ ويسفحون عليه عِزَّةَ نَشَا

+

ومن القصائد التي يمكن أن يكون قالها في هاتين السنتين قصيدته :

أَمَّا إِنَّهُ لَوْلَا الْخَلِيطُ الْمَوْدَعُ وَرَبْعٌ خَلَا مِنْهُ مَصِيفٌ وَمَرْبَعٌ

فهو يقول منها :

لَدَى سَنْدَبَايَا لَا تَهَابُ وَأَرْشَقِ وَمُوقَانَ، وَالسُّمُرُ اللَّدَانُ تُزَعِّعُ
وَأَبْرَشْتَوَيْمَ وَالْيِيَارِ وَمُلْتَقَى سَنَابِكُهَا وَالْحَيْلُ تَرْدِي وَمَمَزَعُ^(٢)

١٢ - ميزات شعره في هذا الطور وبعد هذه الرحلة

رحلة أبي تمام الى خراسان، ختام طور من أطوار تاريخ شعر أبي تمام، وبدء طور جديد يتميز عن جميع عهوده الماضية. فبعد رجعة أبي تمام من خراسان، يبدأ دور أنضج شعره وأكمله. ففي قصائده طول غير متكلف، وخصب واضح ولين؛ وفي التيار النفسي الجارى فيها أريحية وحلاوة، وفي حسه تركيز وعمق. وإن الانسان ليسمع قوله :

لَقَدْ سَاسَنَا هَذَا الزَّمَانُ سِيَاسَةً سُدَى، لَمْ يَسْهَأْ قَبْلُ عَبْدٌ مَجْدَعُ^(٣)
تَرَوْحُ عَلَيْنَا كُلَّ يَوْمٍ وَتَقْتَسِدِي خَطُوبُ كَأَنَّ الدَّهْرَ مِنْهُمْ يُصْرَعُ
حَلَّتْ نَطْفٌ مِنْهَا لِلنَّكَيْسِ وَذُو الْجَحَا يَدَاؤُ لَهُ سُمٌّ مِنْ الْعَيْشِ مُنْقَعُ^(٤)

(١) الملقب كحسن : ما طال وارتفع من الأرض .

(٢) كل هذه أسماء بلاد بالناحية كانت بها وقائع . وبالديوان والليات، بالناه . ولم أجدها في كتب الجغرافيا القديمة . لكن هناك البيار بالراء . يقول عنها ياقوت : " مدينة لطيفة من أعمال قومس " ويقول أبو الفداء في تقويم البلدان، عن قومس : " صقع كبير فيه بلاد كثيرة وقرى . وهوبين خراسان وبلاد الجبل ... ومن مدنه بسطام وبيار " .

(٣) مجدع كمعظم : مقطوع الأذن . (المحيط) (٤) الدوف : الخلط والبل بالماء ونحوه .

فيدرك أى رجل غدا أبو تمام ، ويعلم فرق ما بين هذا البلاء للدنيا ، الخالق لاطمئنان إلى أحداثها ،
شبيهة بالياس ، وبين قوله أيام نزوحه في حديثه عن مصر :

فَقَنَنْى يَامَسَى وَأَعْلَمُ أَنَّنِى مَقُودٌ بِمَجْلٍ لِلْقَادِرِ مُدَجِّجٍ

ويعرف كيف استحالت نظراته في فنه ، من تخطفات ولحات عاجلة للأشياء ، إلى تأملات
طويلة تُجَنِّدُ من أصول الحياة اجتذاجا ، يقصد فيه إلى أغزر ما فى الوجود من معان . وتأمل
إخراجه هذا المعنى القريب إلى الناس جميعا ، ومن أين أخذ تشبيهه ، وأى علاقة ربط بها المعنى والصورة :

لَقَدْ آسَفَ الْأَعْدَاءَ مَجْدُ ابْنِ يُوسُفَ وَذُو النِّقْصِ فِي الدُّنْيَا بِذِي الْفَضْلِ مُوَلِّعُ
أَخَذْتُ بِمَجْلٍ مِنْهُ لَمَّا لَوَيْتُهُ عَلَى مِرَرِ الْأَيَّامِ ظَلَّتْ تَقَطُّعُ
هُوَ السَّيْلُ إِنْ وَاجَهْتَهُ أَنْقَذَتْ طَوْعَهُ وَتَفَنَّدَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ فَيَتَّبَعُ

وإن هذا التساند بين الأبيات ، وعلاقة بعضها ببعض حتى ليكمل أحدها معنى الآخر ، مع تلك
المراعاة الصادقة لفصل كل بيت عن الآخر فصلا تاما تبعا للتقليد الشعري العربي ، إن هذا يرى
مبلغ نظر أبي تمام إلى فنه ، ويبين عن مقدار تطور هذا الفن بعد رجوعه من خراسان إلى آخر أيامه .

كان لكل رحلة من رحلات أبي تمام أثر واضح في شعره . ولقد لتبعت في تاريخ حياته كل
تطور هام في شعره ، وقصصت إلى أن أنبه عليه في وقته . فقلت إنه بدأ يتحدث عن الرحلات
في شعره الذى قاله بعد خروجه من مصر ، وقلت إنه بدأ يصف الحرب والجيوش لما نزل العراق
وأذربيجان منذ سنة ٢١٤ ، وأنا قائل الآن إن سنة ٢٢٠ وما بعدها من حياته ، هى السنين التى
يبدو فيها خصب أبي تمام النفسى بأجلى ما ظهر فى شعره طول حياته . أما مظاهر هذا الخصب
النفسى فقد نهت عليها قبيل هذا . وسأنبه عليها كما وجد مجال لذلك التنبيه .

١٣ - نهاية أمر الحرمية

١ - الأسديلاء على البذ : فى سنة ٢٢٢ فتحت البذ ، مدينة بابك ، ودخلها المسلمون ،
وخربوها وأستباحوها ؛ وذلك لعشر بقين من رمضان .

وفى هذا الفتح كان مع الأفشين ، جعفر الخياط ، وكان أول من أشتبك مع الحرمية على باب
مدينتهم ، وساعده فى ذلك جماعة من المطوعة ، تحت إمرة أبى دلف العجلي ، ممدوح أبى تمام .

يقول ابن الأثير عنهم : « وقد تعلقوا بالبذ وأثروا به أثرا ، وكادوا يصعدونه فيدخلون البذ » . ولم يساعدهم الأفشين في هذا اليوم ، لما كان يعلم من كمين الخرمية لهم ، ولكنه كان لا يعرف أين كان ذلك الكمين ، فكان يصابهم ليعرفه .

ولما جاء موعد الهجوم على البذ ، رتب الأفشين قواده ، بحيث كان تل البذ محاصرا من كل مكان ، ثم هاجم المدينة بقواده الأربعة . فكان جعفر مما يلي الباب ، وإلى جانبه أبو سعيد ، ودارت الحرب واشتد الضيق بمن في المدينة ، وطلب بابك أمان أمير المؤمنين ، ولكنه طلب التأجيل إلى الغد ، فنصحه الأفشين بأن يكون ذلك اليوم ، وأن يرسل الرهائن ، فقبل . وبينما الأفشين في تلك المفاوضات إذ أتاه الخبر أن طلائع عسكر المسلمين قد دخلوا المدينة ، وأنهم يحاصرون بابك في قصر من قصوره . فركب وصاح بالناس ، فدخل ودخلوا معه ، وصعد الناس بالأعلام فوق قصور بابك ، وكان قد كمن في قصوره ومعه ستمائة رجل ، فخرجوا على الناس فقاتلوهم ، ومر بابك حتى دخل الوادي الذي يلي هشتادسر . واشتغل الأفشين ومن معه بالحرب على أبواب القصور ، فأحضر النفاطين فأحرقوها ، وهدم الناس القصور ، فقتلوا الخرمية عن آخرهم . وأخذ الأفشين أولاد بابك وعياله ... وأما بابك فإنه سار فيمن معه . وكتب الأفشين إلى ملوك إرمينية وبطارقهم يعلمهم أن بابك قد هرب وعدة معه ، وهو ماز بكم . وأمرهم بحفظ نواحيهم ولا يترجمهم أحد إلا أخذه حتى يعرفوه .

وجاءت جواسيس الأفشين إليه فأعلموه بموضع بابك . وكان في واد كثير الشجر والعشب ، طرفه بأذربيجان ، وطرفه الآخر بإرمينية ، ولم تكن تستطيع الخيل نزوله ، ولا يرى من يستخفي فيه ، لكثرة شجره ومياهه ... فوجه الأفشين إلى كل موضع فيه طريق إلى الوادي جماعة من أصحابه يحفظونه .

ولكن بابك تمكن من الإفلات من ذلك الوادي ، وأخذ معه أمه ومعاوية الذي مر ذكره ، فسار على وجهه في جبال إرمينية . يقول ابن الأثير : « وكان بطارقة إرمينية قد تحفظوا بنواحيهم ، وأوصوا ألا يجتاز بهم أحد إلا أخذه حتى يعرفوه . وأصاب بابك الجوع ، فرأى حزاناً في بعض الأودية ، فقال لفلان : أنزل إلى هذا الحراث ، وخذ معك دنائير ودراهم ، فإن كان معه خبز فاشتر منه . وكان للحراث شريك قد ذهب لحاجة ، فترل الغلام إلى الحراث ليأخذ منه الطعام ، فرآه رفيق الحراث ، فظن أنه يأخذ ما معه غصباً ، فعدا إلى المسلحة ، وأعلمهم أن رجلاً عليه سيف

وسلاح ، قد أخذ خبز شريكه . فركب صاحب المسلحة ، وكان في جبال ابن سنباط ، فوجه إلى سهل ابن سنباط فركب في جماعة ، فوافي الحراث والغلام عنده ، فسأل عنه ، فأخبره الحراث خبره ، فسأله . فأخبره الغلام عن مولاه ودله عليه . فلما رأى وجه بابك عرفه ، فترجل له وأخذ يده فقبلها ، وقال : أين تريد ؟ قال : بلاد الروم . قال : لا تجد أحدا أعرف بحقك مني ، وليس بيني وبين السلطان عمل ، وكل من ههنا من البطارقة إنما هم أهل بيتك ... نخدعه ابن سنباط حتى صار إلى حصنه . وأرسل بابك أخاه عبد الله إلى حصن أصطفانوس ، فأرسل ابن سنباط إلى الأفسشين يعلمه بذلك . فكتب إليه الأفسشين يبعده ويمنيه ، ووجه إليه أبا سعيد (محمد بن يوسف الثغري) وآخر ، وأمرهما بطاعة ابن سنباط . وأمرهما ابن سنباط بالمقام في مكان سماه ، وقال : لا تبرحا حتى يأتيكما رسول ، فيكون العمل بما يقول لكما . ثم إنه قال لبابك : قد ضجرت من هذا الحصن ، فلو نزلت إلى الصيد ؟ ففعل . فلما نزل من الحصن أرسل ابن سنباط إلى أبي سعيد ورفيقه ، فأمرهما أن يوافياه : أحدهما من جانب وادٍ هناك ، والثاني من الجانب الآخر . ففعلا ... فبينما بابك وابن سنباط يتصيدان ، إذ خرج عليهما أبو سعيد وصاحبه في أصحابهما ، وعلى بابك دراعة بيضاء ، فأخذوهما ... وأركبه أبو سعيد ، وساروا به إلى الأفسشين ، وسير معه سهل بن سنباط ابنه معاوية ، فأمر له الأفسشين بمائة ألف درهم ، وأمر سهل بألف ألف درهم ، ومنطقة مفرقة بالجواهر وتاج البطارقة ... وكتب إلى المعتصم بذلك ، فأمره بالقدوم به عليه . وكان وصول بابك إلى الأفسشين ببرزند ، لعشر خلون من شوال سنة ٢٢٢ .



قد أكون أسهبت في ذكر ما كان في هذه المعركة ، ولكن ذلك شيء لا بد منه . فكل خطوة من هذه الخطوات المذكورة في شعر أبي تمام . ولقد مدح أبو تمام ممن أشتركوا في هذه المعركة أبا سعيد الثغري . وفي مدحه له ما يفيد أنه هو الذي أخذ بابك ، فلو لم يفهم أنه هو الذي تسلم بابك من أسريه بنى سنباط ، لعد أبو تمام مغاليا ، أو ظهر بمظهر من لم يفهم الأحداث التي كانت تجري حوله .

اتصاله بأبي دلف العجلي :

ومن مدحهم من قوادها أيضا ، أبو دلف العجلي . وقد رأينا كيف كان على رأس المتوقعة . وكانت يقيم تارة بالجبال ، وتارة بالعراق . يذكر ياقوت في كلامه على مادة " الجبال " أن أبا دلف العجلي قال :

وإني أمرؤ كسروى الفعّال أصيفُ الجبال وأشتو العراقا
والأبس للحرب أنوابها وأعتنق الدارعين أعتناقا

وإنما اختار أبو دلف ذلك ، ليسلم من سمائم العراق وذبابه ، وهوائه وحشراتة ، وسخونة مائه وهوائه . واختار أن يشتو بالعراق ، ليسلم من زمهرير الجبال ، وكثرة ثلوجه ... وبلغ هذان البيتان إلى عبد الله بن طاهر ، وكان سيئ الرأي في أبي دلف ... فقال أبياناً أولها :

ألم تر أنا جلبنا الخيول إلى أرض بابل قُباً عتاقا

وختامها :

وأنت أبا دلف ناعمٌ تصيفُ الجبال وتشتو العراقا

فلما وقف أبو دلف على هذه الأبيات آلى على نفسه لا يصيف إلا بالعراق ، ولا يشتو إلا بالجبال ... وقال :

ألم ترني حين حال الزمانُ أصيفُ العراقَ وأشتو الجبالا
سُمومُ المصيفِ ، وبردُ الشتاءِ حنانِيكِ حالا أزالتيكِ حالا
فصبراً على حدّثِ النَّباتِ فإنَّ الخطوبَ تُبدِّلُ الرجالا

ولا نعلم أقال أبو تمام قصائده في أبي دلف في العراق ، أم في الجبال ، أم فيهما جميعاً . غير أنه يشير إلى وقائع بابل في شعره فيه . يقول في قصيدته :

عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبَعٍ وَمَلَاعِبِ أَذِيلَتْ مَصُونَاتُ الدَّوْعِ السَّوَاكِبِ

مخاطباً أبا دلف :

وقد علم الأفشينُ وهو الذي به يُصانُ رداءُ المُلكِ عن كلِّ جاذِبِ
بأنك لما استخذل النصرَ واكتسبَ أهَابَ تُسْفَى في وجوه التجاربِ
تجلَّلتُهُ بالرأى حتى أريتَهُ بهِ مِثْلَ عَيْنِيهِ مَكَانَ الْعَوَاقِبِ
بأرشقَ إذ سالت عليهم غمامةٌ جرت بالعوالى والعناقِ الشَوَاقِبِ

وأخرى مطلعها :

أما الرسومُ فقد أذكُرَنَّ ما سلفا فلا تُكفِّنَنَّ مِنْ شَانِيكِ أَوْ يَكِفَّا

يقول فيها :

إن الخليفةَ والأفشينَ قد علما من أشتى لهما من بابلٍ وشفا
في يومٍ أرشقَ والهيحاءُ قد رشت من المنيةِ رشقا وإبلا قصفا

ومنها يصف هرب بابك :

ومرَّ بابكُ مرَّ الريح منجذبا مُحَلَّوِيًّا دمه المعسول لو رَشفا

ومنها :

وغيضة الموت أعنى البذ قدت لها عمرها الحزون الأرض معسفا
كانت هي الوسط المنوع فاستلبت ما حوطها الخيل حتى أصبحت طرفا
فظل بالظفر الأفشين مر تديا وظل بابكها بالذل متحيفا

ومنها البيت الذي يضربه ابن الأثير مثلا في حسن التقسيم ، وهو في وصف الرماح :

مثقفات سلبن الروم زُرقتها والعرب سُمرتها والعاشق القَصفا

وكان أبو دلف كريما مشهورا بكرمه ، شجاعا يُتمثل فيه صورة العربي بلبائته وأنفته . فقال منه أبو تمام كثيرا . يقول صاحب الأغاني إنه أعطاه خمسين ألف درهم ، وهو يعتذر إليه ، لما أنشده قصيدته :
على مثلها من أربع وملايع أذيلت مصونات الدموع السوايك

وكان الأفشين يحسده لحسن سيرته مع عروبته . وقد رأينا قبلا ما كان من كراهة عبد الله ابن طاهر له . ولقد آحتال له الأفشين يوما حتى شهد عليه بخيانة وقتل ، وكاد يقتله ، لولا أن بلغ الخبر أحمد بن أبي دواد القاضي ، فركب في وقته مع من حضر من عدوله ، فدخل على الأفشين ، وقد جرى بأبي دلف ليقول ، فوقف ابن أبي دواد ثم قال : إني رسول أمير المؤمنين إليك ، وقد أمرك ألا تحدث في القاسم بن عيسى حدثا حتى تُسلمه إلي . ثم التفت إلى العدول وقال : أشهدوا أنني أدت الرسالة إليه من أمير المؤمنين والقاسم على قيد الحياة ... وخرج . فلم يقدر الأفشين عليه . ثم أبلغ ابن أبي دواد الخبر إلى المعتصم ، معلما إياه أنه قام بهذا العمل رغبة منه في إنقاذ أبي دلف قبل أن يفوت الوقت فسُرَّ المعتصم . وفي هذا قال أبو تمام شعرا يهني أبا دلف بسلامته من الأفشين أوله :

قد شرد الليل هذا الصبح عن أفقه وسوغ الدهر ما قد كان من شرفه

والقصة كما يتبين فيها من اجتماع أحمد ابن أبي دواد ، والخليفة ، والأفشين ، وأبي دلف في مكان واحد ، يغلب أن تكون وقعت في سر من رأى .

(ج) اتصاله بجعفر بن دينار :

ومن مدحهم أبو تمام من قواد هذه المعركة أيضا ، جعفر بن دينار الخياط . ومن قوله فيه :

شجى في الحشا ترادؤه ليس يفتُر به صُمرت آمالي وإني لمُفِطِرُ

حَلَقْتُ بِمُسْتَنِّ الْمُنَى تَسْرُشُهُ سَحَابَةٌ كَفَّ بِالرَّغَائِبِ تُمَطِّرُ
إِذَا دَرَجَتْ فِيهِ الصَّبَا كَفَّكَتْ لَهَا وَقَامَ يَبَارِيهَا أَبُو الْفَضْلِ جَعْفَرُ
تَفَاخَرَتِ الدُّنْيَا بِأَيَّامِ مَا جَدِ بِهِ الْمَلِكُ يَبْهَى وَالْمَفَاخِرُ تَفْخَرُ
فَتَى مِنْ يَدَيْهِ الْبَاسُ يَضْحَكُ وَالنَّدَى وَفِي سَرَجِهِ بَدْرٌ وَلَيْثٌ غَضَّ نَفَرُ

(د) اتصاله بالأفشين :

صدر أمر الخليفة ، بعد أخذ بابك ، إلى الأفشين بإحضاره إلى سُرْمَنْ رَأَى . وكان الخليفة قد بدأ بناءها سنة ٢٢٠ ، وأبو تمام في غيبة عنها بخراسان ، أول الأمر ، ثم بالثغور بعد ذلك ، يشهد حرب بابك ، ويجدد في ذلك الهول البالغ ، والأحداث العارمة غذاء لشاعريته ، ومددا يستمد منه موضوعات شعره . فلما أمر الأفشين بالرحيل إلى سُرْمَنْ رَأَى ، سار إليها ، تحب ركابته بأخطر نائر عرفه ذلك العصر ، ظل ممتنعا في جبله آثني وعشرين عاما . يقطع الطريق ، ويسلب الناس ويقتلهم ، ويسبي نساءهم . يقول ابن الأثير : ” وكان جميع من قتل بابك في عشرين سنة مائتي ألف وخمسة وخمسين ألفا وخمسمائة إنسان . وغلب من القواد يحبي بن معاذ ، وعيسى بن محمد ابن أبي خالد ، وأحمد بن الجنيذ فاسره ، وزريق بن علي بن صدقة ، ومحمد بن حميد الطوسي ، وإبراهيم بن الليث . واستنقذ ممن كان في يده من المسلمات وأولادهن سبعة آلاف وستمائة إنسان .

X ولما وصل الأفشين ، توجه المعتصم ، وألبسه وشاحين بالجوهر ، ووصله بعشرين ألف درهم وعشرة آلاف ألف يفرقها في عسكره ، وعقد له على السند ، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه “ ولقد كان وصول الأفشين سنة ٢٢٣ . ويزيد الطبري أنه ممن دخل عليه ، أبو تمام فدحه بقصيدته النونية :

بَذَّ الْحِلَادُ الْبَذَّ فَهُوَ دَفِينُ مَا إِنْ بِهِ إِلَّا الْوَحُوشُ قَطِينُ
لَمْ يُقَرَّ هَذَا السِّيفُ هَذَا الصَّبْرَ فِي هِجَاءَ إِلَّا عَزَّ هَذَا الدِّينُ

ومنها يذكر بابك :

لَا فَاكَ بَابُكَ وَهُوَ يَزَارُ وَأَنْتَنِي وَزَيْرُهُ قَدْ عَادَ وَهُوَ أَنْتَنِي

ويقول مشيرا إلى محاولته الهروب إلى بلاد الروم :

وَرَجَا بِلَادَ الرُّومِ فَاسْتَعَصَى بِهِ أَجَلُ أَصَمٍّ عَنِ النَّجَاءِ حُرُونُ
هِيَهَاتَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّكَ لَوْ قَوَى بِالصَّيْنِ لَمْ تَبْعُدْ عَلَيْكَ الصَّيْنُ

ما نال ما قد نال فرعون ولا هاماؤ في الدنيا ولا قارون
بل كان كالضحك في سطواته بالعالمين وأنت أفريدون

وفي البيت الأخير أثر من الأساطير الخرافية الفارسية، يبدو في شعر أبي تمام العربي قبل أن يصوغ فارسي الشاهنامة شعرا . وفي هذه الاستفادة الدائمة من أساطير الماضين، ما يشبه ماجد بعد ذلك بقرون طوال في أوربا، من محاولات استغلال الأساطير اليونانية في الشعر الأوربي؛ وما يجعل للشرق حق السبق إلى هذه الصبغة الفنية للشعر . كما أن في تشبيه أبي تمام الأفشين بأفريدون — بعد معرفة طريقة أبي تمام في استخلاص قضاياها وتشابهها من الواقع دائما — ما يقطع في ذلك الاضطراب القائم حول جنس الأفشين، أفارسي هو أم تركي . فالأفشين لاشك فارسي الجنس، وكذلك كان بابك الحرمي .

ومن هذا نفهم أن أبا تمام نزل سنة ٢٢٣ سر من رأى، وكأنه رجع مع الجيوش لما رجعت من حرب بابك، فشارك الشعراء في مدح الأفشين .

(هـ) مدح أبي تمام للمعتصم :

وفي هذه المرة مدح المعتصم بقصيدته :

خَوَالِكَ عَيْنٌ عَلَى نَجْوَاكَ يَا مَذِلُّ حَتَّامَ لَا يَتَقَضَّى قَسْوُكَ الْخَطِلُ
وإنَّ أَسْمَجَ مَنْ تَشْكُو إِلَيْهِ هَوَى مِنْ كَانَ أَحْسَنَ شَيْءٍ عِنْدَهُ الْعَذْلُ

” حدث الحسن بن وهب قال : قلت لأبي تمام : أفهم المعتصم بالله من شعرك شيئا ؟ قال : استعاذني ثلاث مرات :

وإنَّ أَسْمَجَ مَنْ تَشْكُو إِلَيْهِ هَوَى البيت

وأستحسنه ثم قال لأبن أبي دواد : يا أبا عبد الله ! الطائي أشبه بالبصريين منه بالشأميين “ .

وفي الصولي ما يمكن أن يفهم منه أن أبا تمام لم يتصل بالمعتصم إلا في المصيبة، في حرب عمورية (وقد ذكرت ذلك قبلا . فإن المعتصم قال لأبن أبي دواد ، لما ذكر له أبا تمام بعد الرجوع من عمورية : أليس الذي أنشدنا بالمصيبة ، الأجنس الصوت ؟

ولكن هذا الخبر لا يقطع بأن مقابلة المصيبة كانت في غزوة عمورية أو بعدها أو قبلها ، كما أن جعل هذه المقابلة أول مقابلة لهما، لا يستند إلى شيء أكثر من أن المعتصم قد ذكرها في حديثه لأبن أبي دواد . وليس هناك ما يمنع أن يكون رآه قبلها، فلما ذكر به هذه المرة لم يذكر إلا مرة المصيبة .

وفوق هذا فإن لأبي تمام قصيدة يمدح فيها المعتصم ، ويذكر فيها أخذ بابك ، وقتله في سامراً سنة ٢٢٣ ، ولا يشير فيها أية إشارة إلى غزو المعتصم عمورية مما يدل على أنها قيلت قبل عمورية .

أما الذي جعلني أقدم هذه القصيدة على قصائده في المعتصم (١) فتلك قصته حين نزل بغداد فدخل الجامع ، وكان به من الشعراء على بن الجهم ، وأحمد بن أبي قنن ، وأبن أبي الشيص ، وكانوا يتناشدون الأشعار بعد صلاة الجمعة . فأنشدهم هذه القصيدة من قصائده في المعتصم ولم ينشدهم غيرها ، مع أن له في المعتصم خيراً منها ، ولكنه لم يكن قال فيه غيرها .

ويقول ابن أبي الجهم في القصة : إن هذا كان أول ما عرفوا أبا تمام . ويصوره لنا ابن الجهم أسمر طويلاً يتزيا بزى الأعراب . وقد عاب عليه ابن أبي الشيص قوله :
* حتى ظننتُ قوافيه ستقتل *
بتسكين الياء في "قوافيه" .

عاد بعد ذلك أبو تمام إلى سامراً ، وكان بابك قد قتل . يقول ابن الأثير : إن المعتصم أمر السيف أن يقطع يديه ورجليه فقطعهما ، فسقط . فأمره بذبحه ، ففعل ، وشق بطنه ، وأنفذ رأسه إلى خراسان وصلب بدنه بسامرا . فقال أبو تمام قصيدته :

أَلْتِ أُمُورَ الشَّرِّكَ شَرِّ مَالٍ	وَأَقْرَبَ بَعْدَ تَخْطُ (١) وَصِيَالٍ
غَضِبَ الْخَلِيفَةُ لِلْخِلَافَةِ غَضَبَةً	رُخِصَتْ لَهَا الْمُهْجَاتُ وَهِيَ غَوَايَ
لَمَّا أَنْتَضَى جَهْلَ السُّيُوفِ لِبَابِكَ	أَغْمَدَنَ عَنْهُ جَهَالَةُ الْجُهَّالِ
فَلَا ذَرْيَ بَحَّانٍ اخْتِيَالٍ بَعْدَ مَا	كَانَتْ مُعَرَّسَ عِبْرَةٍ وَنَكَالِ

والقصيدة مثل من أسمى ما بلغ إليه فن القصص الشعري في العربية . فهو يذكر فيها قصة ثورة بابك من يوم اتصل بها ، وهزائمه ، وصراعه في أرسق ، وموقان ، وما كان بالبذ ، ومحاولته الحرب ، وكيف أوقعه أجله الداني . وهو لا ينسى صغيرة ، ولا كبيرة ، ولا يكذب ولا يغلو . وإن الإنسان ليجده يسير في حدود ما ذكره التاريخ . ولكنه يغمز الأحداث بفيض حسه ، وبفهمه لخفايا النفس ، ويعمل خياله في الإبراز للوقائع ولكنه لا يغير حقيقتها . وأرى أن الرجوع إلى القصيدة للقارنة بينها وبين التاريخ هو خير ما يعمل في مثل هذه الحال .

١٤ - موقعة عَمُورِيَّة

(١) تنكيل توفيل بأهل زَبطرة : وبينما كان أبو تمام في بغداد سنة ٢٢٣ يمدح الخليفة ، ويجد في أحداث بابك مادة لشعره ، جدَّ على أطراف الدولة في الثغور حادث جَلَل ، أثار المعتصم ، وحرك بنفسه حب الانتقام له . ذلك هو أن توفيل بن ميخائيل ، ملك الروم ، نرحج بجيش ضخم إلى بلاد المسلمين ، فأوقع بأهل زبطرة وغيرها . يقول ابن الأثير "نخرج توفيل في مائة ألف ، وقيل أكثر . منهم من الجند نيّف وسبعون ألفا ، وبقيتهم أتباع . ومعهم من المحمّرة ، الذين كانوا خرجوا في الجبال ، فلحقوا بالروم حين قاتلهم إسحق بن إبراهيم بن مصعب ، جماعة . فبلغ زبطرة ، فقتل من الرجال ، وسبي الذرية والنساء ، وأغار على أهل ملطية وغيرها من حصون المسلمين ، وسبي المسلمات ، ومثل بمن صار في يده من المسلمين ، وسمل أعينهم ، وقطع أنوفهم وآذانهم . فخرج إليه أهل الثغور من الشام والجزيرة إلا من لم يكن له دابة ولا سلاح " .

(ب) ثورة الرأي العام الإسلامي : ويقول المسعودي « فضج الناس في الأمصار ، وأستغاثوا في المساجد والديار . فدخل إبراهيم بن المهدي على المعتصم فأنشده قائما قصيدة طويلة يصف فيها ما نزل (بالناس) ويحثه على الجهاد فيها :

يا غارة الله قد عاينت فأتيتك هتك النساء وما فيهن يرتكب
هيب الرجال على أجرامها قُتِلَتْ ما بال أطفالها بالذبح تنهب

(ج) خروج المعتصم بنفسه : ويقول ابن الأثير " وبلغه أن امرأة هاشمية صاحبة وهي أسيرة في أيدي الروم : وامعتصماه ! فأجابها ، وهو جالس على سريره : لبيك . لبيك . ونهض من ساعته وصاح في قصره : النفير النفير . ثم ركب دابته ، وسمط خلفه شكالا ، وسكة حديد ، وحقية فيها زاده . وبلغ من ثورة نفسه وعزمته على التضحية أنه استحضر القضاة والشهود ، فأشهدهم أنه قد وقف أملاكه وأمواله أثلاثا : ثلثا لله تعالى ، وثلثا لولده وأقاربه ، وثلثا لمواليه " .

يقول المسعودي " خرج المعتصم من فوره ناظرا وعليه دُرّاعة بيضاء من الصوف ، وقصد تعمّ بمهمة الغزاة ، فمسكر غربي دجلة . وذلك يوم الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الأولى سنة ٢٢٣ ، ونصبت الأعلام على الجسر ، ونودي في الأمصار بالنفير مع أمير المؤمنين ، فسارت إليه العساكر والمطوّعة من سائر بلاد الاسلام " .

في هذا كله ما يرى مبلغ ما كان لغارة توفيل البربرية على المسلمين في ديارهم من أثر في نفوس الناس يومئذ . وفي وصف التاريخ لنفرة المعتصم ، وأضطراب الأقطار الإسلامية لهذا الخطب ، ما يجعلنا نحس مدى آنفعال النفوس بهذا الحادث ، ومقدار ما أحفظها على من لم يرع في غارته حرمة النساء ، ولا براءة الأطفال .

(د) فتوح عمورية : ويمثل هذا الحقل جرد المعتصم جيوشه ، وبه اجتاحت دروب الروم ، وداس قراها في آسيا الصغرى ، وسار أبو تمام في صحبته كما يقول صاحب الفخرى ، وبمنفسه من الحقد ما بكل مسلم . وكان على مقدمته أشناس ، يتلوه محمد بن إسحق بن مصعب ، (أحمد ممدوحى أبي تمام) وعلى القاب عجيف بن عنبسه . فلما دخل بلاد الروم نزل على نهر السن ، وهو على سلوقية قريبا من البحر ، بينه وبين طرسوس يوم . وأمضى المعتصم الأفسين إلى سروج ، وأمره أن يدخل من درب الحدث ليوقع بتوفيل ، طاغية الروم ، وكان قد زحف في جيش ضخم لما سمع بخروج المعتصم فهزمه الأفسين ^(١) .

وكان أهل أنقرة قد أجلوا عنها لما سمعوا بقدوم المسلمين ، ودخل المسلمون من أمان عدة فوقع ذلك الاضطراب في صفوف الروم . ودخل المعتصم أنقره ، وقدم عليه وهو فيها الأفسين ... وأمر المعتصم جنوده أن يحرقوا كل ما يصادفون من القرى . ثم سار حتى أتاه على عمورية ، فضر بها عليها الحصار . وكان بطريقها اسمه ياطس ، على أصح الأقوال ، وهو خال ملك الروم ، ومعه فيها تسعون ألفا .

ويقال إنه لما أعترم فتحها قال له المنجمون : إنا نجد في كتبنا أنها لا تفتح هذه الأيام ، فلم يعبأ بهم وسار إلى فتحها . وقد نعى إليه أن في سورها مكانا ضعيفا ، فسلط منجنيقاته عليه ، واشتد الحصار على الروم ، وكانوا قد أرسلوا إلى ملكهم يطلبون نجدة . ولكن المعتصم أخذ رسلهم . فأرادوا خديعة المسلمين ، وتحذيلهم عنهم عسى أن يصل إليهم مدد . فبعثوا إلى المعتصم يقولون : إنا نرى في كتبنا أن مدينتنا هذه ، لا تفتح قبل نضج التين والعنب ، وأنها لا يفتحها إلا أبناء زنا . فضحك المعتصم وقال : أما فتحها قبل نضج التين والعنب فذلك ما سأفعله إن شاء الله ، وأما أنها لا يفتحها إلا أبناء الزنا ، فمى من أبناء الروم الكفاية . وكان أن فتحها ، وأخذ ياطس بطريقها .

يقول ابن الأثير "وأخذ السيف الروم ، وأقبل الناس بالأسرى والسبي من كل وجه ، فأمر المعتصم أن يعزل منهم أهل الشرف، ونقل من سواهم ، وأمر ببيع المغانم في مواضع وأمر بالباقي فأحرق " .

(هـ) بين قصيدة أبي تمام في الفتح ، وبين التاريخ : في هذه الموقعة التي عمل فيها الحقد عمله قال أبو تمام قصيدته البائية :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الحد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصوائف في متونهن جلاء الشك والريب

ويظهر أنه قالها للمعتصم في رجعته بعد فتح عمورية ، في المصيبة ، وتكون بذلك هي القصيدة التي كان ذكر المعتصم موقف أبي تمام فيها ، لما ذكر به ، بعد رجعته من عمورية إلى سر من رأى ، كما مر في حكاية الصولي . ولقد كان أبو تمام فيها كمادته في شعره ، يصف ما رأى بعينه ، وما سمع بأذنه ، ويجعل من فنه خادما للواقع من غير خروج عليه ، أو تزييف فيه . فانت لا تكاد تبحث عن حادثة من هذه الحوادث التي ذكرتها فيما مضى نقلا عن التاريخ إلا وجدت في القصيدة ، محكية في أجمل أسلوب وأروع عبارة . ولقد رأينا في الاستفتاح إشارته إلى قول المنجمين ، وسخريته مما وجدوا في كتبهم ، وقوله : إنما يحلو الأمر ويذهب الشك ضوء السيف :

أين الرواية بل أين النجوم وما صاغوه من زُخرف فيها ومن كذب
تخرصا وأحاديثا ملفقة ليست ينبع إذا عُدت ولا غريب
عجائبها زعموا الأيام مجفلة عنهن في صفر الأصفار أو رجب
وصيروا الأبرج العليا مرتبة ما كان منقلبا أو غير منقلب
وخوفوا الناس من دهياء مظلمة إذا بدا الكوكب الغربي ذو الذنب
يقضون بالأمر عنها وهي غافلة ما دار في فلك منها وفي قطب
لو بيئت قط أمرا قبل موقعه لم يخف ما حل بالأوثان والصلب

وإن أعرقنا اليوم في الثقافة لا يقدر أن يسخر بالتنجيم أكثر مما سخر منه أبو تمام في شعره هذا ، منذ نيف وعشرة قرون

وأغرب ما في هذا الرجل هو استغلال الواقع في شعره ، استغلالا يبعث في النفس الدهشة ، ويساعد المحقق التاريخي أثنى مساعدة . فإن هذا ”الكوكب الغربي ذا الذنب“ الذي يتحدث عنه أبو تمام في شعره قد ظهر قبل فتح عمورية . يقول ابن الأثير في ذكره حوادث سنة ٢٢٢ :
 ”وفيها ظهر عن يسار القبلة كوكب ، فبقى يرى نحوا من أربعين ليلة ، وله شبه الذنب . وكان أول ما طلع نحو المغرب ، ثم رُئى بعد ذلك نحو المشرق . وكان طويلا جدا ، فهال الناس وعظم عليهم . ذكره ابن أبي أسامة في تاريخه ، وهو من الثقات الأثبات “ .

وفي تاريخ موقعة عمورية في ابن الأثير والطبري اختلاف . فكلاهما يقولان إنها وقعت سنة ٢٢٣ ، ثم يعقبان على ذلك بأن هناك من قال إنها كانت سنة ٢٢٤ ، فإذا نحن أخذنا ما يقول أبو تمام عن تخويف المنجمين للمعتصم من الخروج ، لظهور هذا الكوكب ، أو لقرب ظهوره ، وأضفنا إليه أيضا ما يفهم من كلام الطبري وابن الأثير عن بابك : ذلك أنه لما أشد عليه الحصار سنة ٢٢٢ في البذ ، كتب إلى ملك الروم أن يهاجم المسلمين لما أخبره من شغل جنودهم به ، فإن الخليفة ”قد وجه عساكره ومقاتلته إليه ، حتى وجه خياطه ، يعني جعفر بن دينار الخياط ، وطباخه ، يعني إيتاخ ، فإن أردت الخروج إليه فليس في وجهك أحد يمنعك “ . ”وكان بابك يرجو من ذلك أن يتحرك ملك الروم فيكشف عنه المسلمين شيئا“ . وكان أن هاجم توفيل بجيشه زبطرة .

ثم ما يقولانه في مكان آخر عن المعتصم ، من أنه لما فرغ من أمر بابك ركب إلى بلاد الروم ، إذا ذكرنا ذلك ، أمكننا أن ندرك منه كله ، وبفضل بيت أبي تمام ، أن هجوم توفيل على زبطرة ، كان أقرب ما يمكن إلى أخذ بابك . وأن المعتصم أراد السير إلى بلاد الروم لنفذه المنجمون لتشاؤمهم بظهور ذلك النجم ذي الذنب ، فلم يعأ بهم وسار ففتح عمورية في ٢٢٣ ، بعد أن أعد جيوشه . ولو كان تأخر حتى سنة ٢٢٤ لما كانت هناك داعية لذكر أبي تمام هذا الكوكب في شعره ، والهزء من المنجمين ، ما دام الخليفة قد نزل عند رغبتهم فتأخر عن غزاته تجنباً لعاقبة ما تشاءوا منه .

ويقول مشيراً إلى موقعة أنقرة التي سبقت فتح عمورية :

جرى لها الفأل نحسا يوم أنقرة إذ غودرت وحشة الساحت والرحب
 لما رأت أختها بالأمس قد حربت كان الخراب لها أعدى من الحرب

ثم يقول في وصف الحريق مخاطبا المعتصم :
لقد تركت أمير المؤمنين بها للنار يوما ذليل الصخر والحشب
الأيات

وبقول مشيرا إلى حادث الهاشمية التي نادت : "واعتصماه !" لما أسرت :
لبيت صوتا زبطريا هزقت له كاس الكرى ورضاب الخرد العرب
ويقول اليعقوبي في الكلام على هذه الواقعة : إن ملك الروم لما عرف مقصد المعتصم عمورية
"أوفد من قبله وفدا إلى المعتصم يقول : إن الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدوا أمرى . وأنا أبنها
بإلى ورجالى ، وأرد من أخذ من أهلها ، وأخلى جملة من فى البلد للروم من الأسارى ، وأبعث إليك
بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب البطارقة " ولكن المعتصم لم ينس كل ذلك ما أتى من أجله
فيقول أبو تمام :

لما رأى الحرب رأى العين توفلس والحرب مشتقة المعنى من الحرب
غدا يصرف بالأموال خزيتها فعزه البحر ذو التيار والعَب
هيات زعزعت الأرض الوقور به عن غزو محتسب لا غزو مكتسب
لم ينفق الذهب المُرْبى بكثرتة على الحصى وبه فقر إلى الذهب
ويقول مشيرا إلى عدد من كان بعمورية من الرجال ، وما كان من قولهم إن مدينتهم لا تفتح
قبل نضج التين والعنب :

تسعون ألفا كاساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والنَّعَب
ولقد عاب بعضهم على أبي تمام ذكره التين والعنب فى الشعر ، وقالوا ليس هذا من الألفاظ
التي تستعمل فى الشعر ، فرد عليهم آخرون بقولهم : إنهم لم يعرفوا أن هذا هو ما وقع ، وليس خيالا من
خيالات أبي تمام حتى يلام عليه .

وهذه المقارنة بين القصيدة والتاريخ ، ترى مبلغ ما كان أبو تمام يعتمد على الواقع فى نظم شعره ،
وأن فنه إنما كان فى صياغة هذا الواقع صياغة شعرية ، فهو فى فنه أشبه بالقاص الذى يصف
مارأى وما سمع .

(و) مدحه بعض القواد : لم يكن المعتصم وحده ممدوح أبي تمام فى عمورية . فلقد كان
معه فى هذه المعركة من قواده ، أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى صاحب أذربيجان ووفائع بابك .

وقد شارك أبو سعيد في هذه الوقائع ، ويظهر أنه كان في جيش الأفشين كما كان أيام بابك . ولقد قُلت من قبل إن الأفشين كان قد وُجّه بجيشه للقاء توفيل ، لما علم المعتصم بخروج ملك الروم بجيشه ، فلقية جيش الأفشين ومن قواده أبو سعيد ، فهزمه وشتته وطارده طويلا . ثم عاد الأفشين بجيشه فلقى المعتصم في أنقره . ثم ذهبوا جميعا ففتحوا عمورية .

يمدح أبو تمام محمد بن يوسف الثغرى ، فيذكر هزيمة توفيل ملك الروم سنة ٢٢٣ ، ومطاردة جيوش المسلمين له ، وبلاء أبي سعيد في هذه المواقع في قصائد كثيرة ، ولكنه لم يقلها جميعا في هذه المرة . والقصيدة التي يغلب أن يكون قالها هذه المرة هي :

ما عهدنا كذا بكاء المشوق كيف والدمع آية المعشوق

ومنها :

رُميت من أبي سعيد صفاة الر روم جمعاً بالصَّيْلَمِ الخنْفِيقِ^(١)

+

في كُماة يُكسَوْنَ نَسَجَ السَّلَوقِ^(٢) وتعيدهم كلابُ سَلُوقِ^(٣)
يتساقون في الوغى كاس موت هي موصولة بكاس الرحيق
وطئت هامة الضواحي فلما أن قضت نحبها من القيدِ^(٤)
ألهبها السياط حتى إذا استف ت باطلاقها على الباطلِ^(٥)
شها شزبا فلما استباحث بالبقلار كل سهل ونيق
سار مستقدا إلى البأس يزجى رهجا باسقا إلى الإسيق

وهو فيها يلعب بالبديع لعبا ، ويروض أوابده ترويضاً ، فيجانب بين الأعلام الأعجمية والألفاظ العربية ، ويكثر من الغريب إكثارا واضحا . ولا يعبا أن يقرن فيها بين كلمات ذات حروف رقيقة مهموسة ، وأخرى غليظة ، تملأ الشدق حين ينطق بها . والقصيدة تمثل ذلك المعنى الذي يقولونه عنه من أنه كان ينصب القافية قبل أن يقول شعره ، ثم يأخذ بعد ذلك في تأليف قصيدته ، فقد

(١) الصفاة : الصخرة . والصيْلَم : الأمر الشديد والداهية والسيف . والخنْفِيق : السريع جدا .

(٢) سلوق كصبور قرية باليمن تنسب إليها الدروع والكلاب ، أو بلد بطرف إرمينية ، أو إنما نسبنا إلى سلقية محرّكة :

بلد بالروم . (المحيط) فهؤلاء الكاة يلبسون الدروع السلوقية ، ويركبون خيلا تبلغ في سرعة عدوها الكلاب السلوقية .

(٣) في الديوان القيدوق بقاء وفي يافوت القيدوق بالقفاف ، وينص على أنها موضع ورد في شعر أبي تمام .

أختار أبو تمام قافية هذه القصيدة القافية لتوافقها مع بعض الأعلام التي أراد الحديث عنها كالإسبيق والباطلوق والساروق والقذوق .

ولكن ألفاظها مع غرابتها وكثرة القاف في قوافيها ، لا تنفر الأذن ، ولا يضيق بها سامعها أو قارئها ، وأن أحدا ليتعقبها في شغف بتعقبها ، وهو فيها يرق ويغلفظ ، ويلين ويخشن ، والإنسان يحس ، بين رفته وخشونته جميعا ، شيئا من التلاؤم كثيرا ، أخذا ، أشبه بذلك الحس الذي يجده في سماع موسيقى تختلف أصوات الآلات فيها رقة وخشونة ، ولكن بينها جميعا توافقا وفيها انسجاما .

وهو فيها جارى الشعر ، طويل النفس ، فيه أريحية ينطبق عليها ما يقوله في وصف قصيدة له :

فكأنما هي في السَّماع جنادلٌ وكأنما هي في القلوب كواكبُ

فنها :

وقعة زعزعت مَدِينة قُسْطَنْد طينَ حتى أَرْتَجَّتْ بِسوقِ فَرُوقِ
فوحقَّ القنا عليه يميننا هي أمضى من الحسام العتيق
أنَّ لو أنَّ الذراعَ شَدَّتْ قُواها عَضُدٌ أو أعين سَهْمٌ يَفُوقِ
ما رأى قُفْلها كَمَا زَعَمُوا قُفْ لا ولا البحرَ دُونَهَا بعميقِ

وكانما أبو تمام فيها يعمد إلى الإكثار من ذكر الأماكن ولو كانت رومية كما كان الجاهليون يكثرُونَ من ذكر الأماكن في شعرهم . وهو نحت الألفاظ فيقول : مبطرق البطريق ، وتجري فيها جميعا حلاوة نفس ، وروح شعري صحيح . يقول في وصف أبي سعيد :

غَيْرُ ضَنْكِ الضَّلُوعِ فِي سَاعَةِ الرَّوِّ عِ وَلَا ضَيْقِ غَدَاةِ الْمَضْيِيقِ
ذَا هَبُ الصَّوْتِ سَاعَةَ الْأَمْرِ وَالنَّهْرِ ي إِذَا قَلَّ فِيهِ هَدْرُ الْفَنِيْقِ

+

ولقد رجحت أن تكون هذه القصيدة قيلت هذه المرة لخلقها من إشارة إلى بابك ، إذ قد شغل أبو تمام فيها بالحوادث التي تحوطه ، فتملاً دنياه ، وتستأثر بمشاعره ، عن أن يذكر غيرها . أما في غيرها من القصائد فهو يخلط في قصائده بين أعمال أبي سعيد في حرب بابك ، وأعماله في حرب الروم . وعلّة ذلك عندي ، هو مضيقها جميعا ، وأستواء أثرها في نفسه ، بعد أن خلص من ملابسة أقربها لحياته .



يقول اليعقوبى "وفتحت عمورية يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من رمضان سنة ٢٢٣" ويقول ابن الأثير "وكان نزول المعتصم عليها لست خلون من شهر رمضان وأقام عليها خمسة وخمسين يوما".

ولكن ما يقوله اليعقوبى صحيح . فان أبا تمام قد مدح أبا سعيد النفري عند خروجه إلى مكة بعد فتح عمورية بقصيدة مطلعها :

مَالِي بِعَاذِلَةِ الْأَيَّامِ مِنْ قَبْلِ لَمْ يَثْنِ كَيْدَ النَّوَى كَيْدِي وَلَا حِيلَ
ذكر ذلك في نسخة من ديوان أبي تمام أستحضرتها الجامعة حديثاً من الاسكوريال . وفي قطعة أخرى قالها أبو تمام لهذه المناسبة يذكّر غمه بخروجه يقول :

لَا وَدَّ عَنْكَ ثُمَّ تَدْمَعُ مُقْلَتِي إِنْ الدَّمْعُ هِيَ الْوَدَاعُ الثَّانِي
وأصوم بعدك عن سواك فأغتدي متقلداً صومين في رمضان

فكان خروجه إلى مكة كان في رمضان، وذلك بعد عمورية، وهو ما ينطبق على كلام اليعقوبى . ومن قصيدتي أبي تمام في خروجه إلى مكة يشعر الانسان أنه كان حزينا لفراقه، حزنا لم يخفف عنه منه اتصاله بالخليفة المعتصم . ولعل ذلك راجع إلى ما يقوله الصولي عن أبي سعيد هذا، من أنه كان متصل العطاء وإن لم يكن، وإلى أن صلة أبي تمام بالخليفة، رغم مدائحه فيه، لم تكن من القوة وإيثار الخليفة إياه بحيث تنسيه غيره . بل إنى لأكاد أظن أن اهتمام المعتصم به لم يكن يتناسب مع عدد قصائده فيه حتى هذا الزمن .

١٥ - عودة أبي تمام إلى سامرا

(١) قوله في ثورة العباس بن المأمون : آنصرف المعتصم عن بلاد الروم راجعا إلى سامرا، وفي ركبته أبو تمام . ويقول المسعودى : إنه كان يعتزم عبور الخليج، وفتح القسطنطينية هذه المرة، لولا أنه سمع أن العباس ابن أخيه المأمون يدبر خلعه، وأن جماعة كبيرة من قواده بايعوه . فعاد وقبض عليه، وحبسه عند الأفشين، وقد مات العباس في الطريق إلى سمر من رأى ودفن بمنبج . وفي المصيبة قال أبو تمام في المعتصم قصيدة أنشدها بين يديه، يغلب أن تكون هي بآئته التي فرغت قبلا من الحديث عنها . ولا أشك في أن أبا تمام زار بلده هذه المرة في رجعته مع المعتصم .

فلما كان المعتصم بسامرا ، لم يكن قد نسي ما كان من ابن أخيه العباس بن المأمون . يقول ابن الأثير "فسمى العباس يومئذ باللعين ، وأخذ أولاد المأمون ... فحبسهم في داره حتى ماتوا بعد". ولقد دخل أبو تمام على المعتصم في سامرا بشعر مدحه به ، قدمه إليه القاضي أحمد بن أبي دواد ، ويظهر أنه كان عرفه في هذه الغزاة يقول الصولي : "فذكره ابن أبي دواد للمعتصم ، فقال له : أليس الذي أنشدنا بالمصيبة ، الأجنس الصوت ؟ قال : يا أمير المؤمنين إن معه راوية حسن النشيد . فاذن له ، فأنشده راويته مدحه له . أما المدح الذي لم يسمه فهو قصيدته :

أَجَلُ أَيُّهَا الرِّبْعُ الَّذِي خَفَّ أَهْلُهُ لَقَدْ أَدْرَكْتُ فِيكَ النَّوَى مَا تَحَاوَلُهُ
وَقَفْتُ وَأَحْشَانِي مَنَازِلُ لِلْأَسَى بِهِ ، وَهُوَ قَفَرٌ قَدْ تَعَفَّتْ مَنَازِلُهُ

ثم يمضى فيها ، فيصف سفرته إلى سامرا ، ثم يشير في خفاء وخوف ورحمة ، تتنازعه جميعا ، إلى حادث أبناء المأمون ، وما أصابهم بسبب خروج العباس أخيه فيقول :

لَقَدْ خَانَ مَنْ يُهْدَى سُوَيْدَاءَ قَلْبِهِ لِحَدِّ سِنَانٍ فِي يَدِ اللَّهِ عَامِلُهُ
وَكَمْ نَاكِثٍ بِالْعَهْدِ قَدْ نَكَشَتْ بِهِ أَمَانِيهِ وَأَسْتَخْذَى لِحَقِّكَ بَاطِلُهُ
فَأَمَكَّتُهُ مِنْ ذِمَّةِ الْعَفْوِ رَافَةٌ وَمَغْفِرَةٌ إِذْ أَمَكَّتْكَ مَقَاتِلُهُ
فَخَاطَلَهُ الْإِقْرَارُ بِالذَّنْبِ رُوحَهُ وَجَنَانَهُ إِذْ لَمْ تَحُطِّطْهُ قَنَابِلُهُ
إِذَا مَارِقٌ بِالْفَدْرِ حَاوَلَ غَدْرَهُ فَذَلِكَ حَرِيٌّ أَنْ تُثِيمَ حَلَالَتُهُ
فَإِنْ بَاشَرَ الْإِصْحَارَ فَالْبَيْضُ وَالْقَنَا قِرَاءُهُ ، وَأَحْوَاضُ الْمَنَآيَا مَنَاهِلُهُ
وَإِنْ بَيْنَ حَيْطَانَا عَلَيْهِ فَإِنَّمَا أَوْلُوكَ عُقَالَاتُهُ لَا مَعَاوِلُهُ
وَإِلَّا فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ سَاخِطٌ وَدَعَهُ فَإِنَّ الْخُوفَ لَا شَكَّ قَاتِلُهُ

فهو موزع بين رحمة يكنها لما أصاب أبناء المأمون ، وخوف واضح أن يأخذه الخليفة بشفاعته لقوم يخافهم أشد الخوف على عرشه . فهو يلين فيها تارة ، ويشدد تارة ، ولكنه راجع الى طلب العفو أبدا ، وتركهم للخوف يتعلم . وهي أول قصيدة نسمعه يتحدث فيها عن رحمة الخليفة وعفوه ، فيطيل ، ويبين عن فهم لوظيفة الحاكم :

بِعَتَصِيمٍ بِاللَّهِ قَدْ عَصِمْتَ بِهِ عَرَى الدِّينِ وَآلَفْتُ عَلَيْهِ رَسَائِلُهُ
رَعَى اللَّهُ فِيهِ الرِّعِيَّةَ رَافَةً تُزَايِلُهُ الدُّنْيَا وَلَيْسَتْ تَزَايِلُهُ
فَاصْحُوا وَقَدْ فَاضَتْ إِلَيْهِ قُلُوبُهُمْ وَرَحْمَتُهُ فِيهِمْ تَفِيضُ وَنَائِلُهُ

وقام فقام العدل في كل بلدة خطيبا، وأضحى الملك قد شقَّ بازله
وجرد سيف الحق حتى كأنه من السِّلِّ مُودٍ جَفْنُهُ وحمائله

وفيه هذا البيت الغريب ، المنبئ عن سخط خفيّ ، قد يكون نتيجة الانفعال لما أصاب
أبناء المأمون :

رَضِينَا عَلَى رَغْمِ اللَّيَالِي بِحُكْمِهِ وَهَلْ دَافَعُ أَمْرًا وَذُو الْعَرْشِ قَابِلُهُ

والظاهر أن الخليفة لم يقضب من هذه الشفاعة ، أو أنه لم يدرك ما قصد أبو تمام فيها .
يقول الصولي " فأمر له بدارهم كثيرة ، وصكَّ ماله على إسحق بن إبراهيم المصعبي . قال :
أبو تمام : فدخلت إليه بالصك ، وأنشدته مديحا له ، فأستحسنه ، وأمر لي بدون ما أمر به المعتصم "
أما القصيدة التي مدح بها إسحق فلم يقل الصولي عنها شيئا .

(ب) اتصّاله بأبن أبي دواد وأبن الزيات : عرف أبو تمام القاضي أبا عبد الله أحمد

أبن أبي دواد ، كما رأينا ، وقدمه هذا إلى المعتصم ، وكان أبن أبي دواد عظيم المنزلة عند الخليفة .
ومن قصة إنقاذه أبا دلف من يد الأفشين يمكن أن تعرف مروءته . وأبن أبي دواد من الشخصيات
العظيمة التي هي مفخرة من مفاخر التاريخ العربي . وفي أبن خلكان عنه الكثير ، وكان عربيا ، من
قبيلة إياد . كان يفض محمد بن عبد الملك الزيات ، وزير المعتصم ، وكان أبن الزيات أكثر بغضا له .
ولقد خدم أبن أبي دواد المأمون قبل أن يخدم المعتصم . أما أبن الزيات فكان أحدث اتصّالا
بالخلفاء . فأول من أستوزره المعتصم سنة ٢٢٠ ، بعد أن نكب وزيره الفضل بن مروان . وكان
في أبن أبي دواد رحمة ؛ وكان أبن الزيات يرى أن الرحمة خور في الطبيعة . فكان العداء بين الاثنين ،
عداء ما بين طبيعتين متنافرتين لا لتفقان .

وكان أبو تمام شاعرا فتعرف بهما جميعا ، ومدحهما جميعا . ويغلب أن يكون تعرفه بأبن الزيات
قديما ، أقدم بكثير من وزارته ، فهو يقول له في قصيدة يمدحه بها :

وَلِي هِمَّةٌ تُضَيِّ الْعَصُورَ وَإِنِّهَا كَمَهْدِكَ مِنْ أَيَّامِ مِصْرَ لِحَامِلُ
سَنُونَ قَطَعْنَاهُنَّ عَشْرًا كَأَنَّمَا قَطَعْنَا ، لِقَرَبِ الْعَهْدِ مِنْهَا ، مَرَا حِلُ

ففي قول أبي تمام لأبن الزيات " كمهدك من أيام مصر لحامل " ما يدل على أنه عرفه من أيام
مصر . وقد يكون ذلك في مصر نفسها ، أو في العراق بعد رجعة أبي تمام من مصر مباشرة ؛ وقد

عاد أبو تمام من مصر، كما رأينا قبلاً، سنة ٢١٤ . فكأنه قال هذه القصيدة لأبن الزيات سنة ٢٢٤، لما ذكره من مرور عشر سنوات على أيام مصر . وفي القصيدة ما يشتم منه أن أبا تمام كان يجد صعوبة كبيرة في الاتصال بالخليفة، ليقول فيه شعره، برغم أنه كان قد اتصل به قبل الآن مرات . ويظهر أنه كان لجأ قبل أن يقول هذه القصيدة إلى ابن الزيات ليدخله على الخليفة ، فلم يفعل . وهو فيها شديد الضيق بما يرى حوله من قيام الحجاب بينه وبين عطاء الدولة . فهو يقول لأبن الزيات :

أبا جعفر إنَّ الجهالة أمها
أرى الحشو والدهماء أضحوا كأنهم
غدوا وكأنَّ الجهل يجمعهم به
فكن هضبة نأوى إليها وحرة
فإن الفتى في كل ضربٍ مناسب
فهو يتوسل إليه بالحرفة وقرابة الأدب .



ويمكن أن نضع في هذه الفترة، من شعره الذي قاله في القاضي أحمد بن أبي دواد مقطوعتين، إحداهما مطلعها :

أحمد إن الحاسدين كثير ومالك إن عد الكرام نظير

وثانيتها :

يا أيها الملك المعروف قبته فيها حياً المزين إلا أنه بشر

ويظهر أن أبا تمام أخذ ينجر تدريجياً إلى التأثر بتلك الخصومة التي كانت قائمة بين ابن أبي دواد، فيعرض في مدح القاضي بالوزير، وفي مدح الوزير بالقاضي ؛ ويسوء ظن كل منهما به لتردده على الآخر، فكان أن ضاقا به جميعاً، وحرماه عطاءهما جميعاً، وبدأ الحزن يدب إليه ، لضيق رزقه ؛ كما يبدو ذلك في القصائد التي أشرت إليها مما قاله فيهما .

(ج) رد خالد بن يزيد عن إرمينية وقول أبي تمام : في هذه السنة (٢٢٤) يكون خالد ابن يزيد بن مزيد الشيباني، ممدوح أبي تمام في سنة ٢١٦، في سرمن رأى ،، مردوداً عن ولاية إرمينية بأمر الخليفة المعتصم، إذ كان قد ولاه إياها سنة ٢٢٣ . يقول اليعقوبي « فلما بلغ خبره إرمينية

(١) النواقل : قبائل تنقل من قوم إلى قوم . وقد تكون النواقل جمع الناقلة ومعناها ولد الولد . والأول أقرب وأرجح .

تحصن كل رئيس فيها ، وأشتد خوفهم منه ، وعملوا على العصيان . فكتب منصور بن عيسى السبيعي ، صاحب بريد إرمينية ، إلى المعتصم بذلك فردّه^(١) خالداً .

ويذكر ابن خلكان في كتابه ، في ترجمة ابن أبي دواد ، ما يشبه أن يكون في هذه الحادثة عينها . يقول "إن المعتصم غضب على خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني ... وأشخصه من ولايته ، لعجز لحقه في مال طلب منه ، وأسباب غير ذلك بفلس المعتصم لعقوبته ، وكان قد طرح نفسه على القاضي أحمد (ابن أبي دواد) ... " ثم يمضي في تفصيل شفاعته ابن أبي دواد فيه ، حتى يعفو عنه الخليفة ، ويعطيه هو وأصحابه رزق ستة أشهر كانوا قد استحقوها . وما قاله ابن خلكان يتفق مع ما قاله اليعقوبي ، ويذكر عليه أن من أسباب غضب المعتصم على خالد ، ذلك العجز الذي لحقه في مال طلب منه ، وأن المعتصم عفا عنه لشفاعة القاضي فيه . ولم يذكر أنه أعاده إلى الثغر . أما ناقل الديوان فيضع في رأس قصيدة قالها أبو تمام لهذه المناسبة ما يفيد أنه كان قد نفاه إلى مكة ، فشجع ابن أبي دواد فيه ، فقبل المعتصم شفاعته ، وأعفاه من الخروج ، واستقر على حاله . ويمكن أن يفهم من عبارته الأخيرة "واستقر على حاله" أن خالداً قد أعيد إلى الثغر ثانية وهذا ما لم يقل به أوسع كتب التواريخ تفصيلاً لتاريخ هذه الناحية من الأرض ، وهو اليعقوبي . وهو إنما يذكر ردّه إلى إرمينية ثانية في عهد الواثق سنة ٢٣٠ . وهذا هو الذي يمكن أن يفسره شعر أبي تمام . وعندى أن ناقل الديوان ليس بالحجة الذي يعول عليه من الناحية التاريخية ، لا سيما أن اليعقوبي يتبع ولاية إرمينية الذين ولوها بعد سنة ٢٢٣ إلى سنة ٢٣٠ وما بعدها ، فيذكرهم ولا يشير فيهم إلى خالد .

مدحه أبو تمام في هذه المناسبة بقصيدتين إحداهما :

يَا مَوْضِعَ الشَّدْنِيَةِ الْوَجْنَاءِ وَمُصَارِعَ الْإِدْلَاجِ وَالْإِمْسَاءِ
أَقْرَى السَّلَامِ مَعْرِفًا وَمُحْصِبًا مِنْ خَالِدِ الْمَعْرُوفِ وَالْهِجَاءِ

وهي تبين عن فن أبي تمام كيف كان يستخرجه من الواقع استخراجاً ، لا في موضوعاته وكفى ، ولكن في بديعه أيضاً ، وفي ألفاظ قصيدته . فنسمعه يقول : معرّفًا أي نازلاً بعرفات ، ومحصباً : أي نازلاً المحصب في منى ، ونسمعه يذكر البطحاء ، ويحانس بين منى ومنى وحرى وحرّاء ويقول :

وَتَعْرِفَتْ عَرَفَاتُ نَائِلِهِ وَلَمْ يُخْصَصْ كِدَاءٌ مِنْهُ بِالْإِكْدَاءِ
وَلَطَابُ مَرْتَبِعِ بَطِيئَةٍ وَأَكْتَسَتْ بُرْدَيْنِ ، بُرْدَ ثَرَى وَبُرْدَ ثَرَاءِ

لَا يُحْدِثُ الْحَرَمَانُ خَيْرًا مِنْهُمْ حَرَمُوا بِهِ نَوْءًا مِنَ الْأَنْوَاءِ
وهو فيها ذاهب هذا المذهب ، كثير الاستعارات ، حسنها وقبيحها ، ولكن أغلبها يبدو فيه التكلف
والصنعة . وقال أيضا لما فاحره رجل في مجلس وهو معزول عن الثغور :
أَقْرَمَ بَكْرٍ تُبَاهِي أَيْهَا الْحَفْضُ وَنَجَمَهَا أَهَذَا الْهَالِكُ الْحَرِضُ

* *

(د) مدح له في أبي سعيد الثغرى : وبينما هو كذلك إذ عاد أبو سعيد من غيبته بمكة ،
وذكر شاعره . يقول الصولي ^(١) : فكتب إلى أبي تمام كتابا ، وقرنه بقرنه ، فجعل (أبو تمام) جوابه
شعرا في كتاب إليه ، هو :

إِنِّي أَتَنَّى مِنْ لَدُنْكَ صَعِيفَةً	غَلَبَتْ هُمُومَ النَّفْسِ وَهِيَ غَوَالِبُ
وطلبت ودَى والتنائف بيذا	فنداك مطلوبٌ ومجدك طالب
فَلَتَلْقَيْنَاكَ حَيْثُ كُنْتَ قَصَائِدُ	فِيهَا لِأَهْلِ الْمَكْرَمَاتِ مَآرِبُ
فكأنما هي في السماع جنادل	وكأنما هي في القلوب كواكب

وفي هذه الأبيات من القصيدة ما يكشف عن شيء مما كان يخاطب نفس أبي تمام من هم ، وما كان
يلقاه من عنت في هذه الفترة يقول :

كُثِرَتْ خَطَايَا الدَّهْرِ فِيَّ وَقَدْ يَرَى	بَسْدَاكَ وَهُوَ إِلَى مِنْهَا تَائِبُ
وَتَبَاعَتْ أَيَّامُهُ وَشَهْوَرُهُ	عُصْبًا يُغْرِزُ كَأَنَّهُمْ مَقَانِبُ
مِنْ نَكْبَةٍ مُحْفُوفَةٍ بِمَصِيبَةٍ	جُبَّ السَّامُ لَهَا وَجُدَّ الْغَارِبُ
أَوْ لَوْعَةٍ مَتَوَجِّةٍ مِنْ فُرْقَةٍ	حَقُّ الدَّمُوعِ عَلَى فِيهَا وَاجِبُ
وَوَلَّهْتُ مَذْزُمَتِي رَكَابِكَ لِلنَّوَى	فَكَأَنَّنِي مَذْغَبَتِي عَنِ غَائِبُ

ومن البيت :

فَلَتَلْقَيْنَاكَ حَيْثُ كُنْتَ قَصَائِدُ	فِيهَا لِأَهْلِ الْمَكْرَمَاتِ مَآرِبُ
---	--

يمكن أن نستظهر أنه كان يريد أن يبقى في العراق ، ويرسل قصائده إليه حيث هو . ولكن لم
يلبث أبو تمام أن سار إليه ، وأظن ذلك كان سنة ٢٢٥ ، فدحه بقصيدته :

حَتَمَهُ فَأَحْتَمَى طَعْمَ الْحُجُودِ	غَدَاةَ رَمْتِهِ بِالطَّرَفِ الصَّيُودِ
--	---

وهو يذكره فيها بفعاله مع بابك . فمنها :

عن الإسلام ، ذا بأس شديد	أليس بإرشي كنت المحامي
تلهب غير خامدة الوقود	رأك الحريمي عليه نارا
على العقبان في خلق الأسود	دلقت لهم بأبناء المنايا

ويمضي فيها خفيفا يصف أحداث بابك حتى ينتهي إلى أخذه ، فيأخذ في الحديث عن حربه

مع الروم :

منأيا جمعهم بيدى معيد	فأما آل قيصر فاستعيدت
لشيب شها رأس الوليد	شنت عليهم الغارات حتى

١٦ - اضطراب أبي تمام في البلدان

(أ) في الشام : وبيننا أبو تمام عند أبي سعيد ، إذ ورد عليه كتاب من أهله بالشام ، فيه

نمي عزيز عليه لا نعرف من هو . وقد يكون أبنه ، أو أخاه ، أو زوجته ، فأولئك جميعا قد ماتوا في حياته ، ونعاهم . فاستأذن أبا سعيد في الذهاب إلى أهله :

يا من به يفتخر الفخر	ومن به يتمج الشعر
ما طلبي للإذن أن شاقني	شمس من الإنس ولا بدر
إلا كتاب أحرس ناطق	أنطق منه طيه النشر
فانتشرت حين بدا طيه	سرائر يكتنها الجهر
جاء نذير الحزن في بطنه	بحادث أظهره الظهر
فأنهل في أسطوره أسطر	للمع سطر فوقه سطر
فمن بالإذن على نازح	عن أهله ساعته دهر

(ب) في سامراً : آنحدر أبو تمام إلى الشام سنة ٢٢٥ ، ليبكي من مات من أهله ، ولا نعلم

كم بقي هناك . غير أننا نجده سنة ٢٢٦ في سر من رأى ، يمدح المعتصم ، ويذكر إحراق الأفسين في قصيدته :

الحق أبلج والسيوف عوار	فخذار من أسد العرين حذار
ملك غدا جار الخلافة منكم	والله قد أوصي بحسن الجار

وقد تحدثت عن هذه القصيدة في أماكن أخرى ، ولكن لا بد هنا من الإشارة بشيء إلى الأفشين لجلاء بعض ما يعرض من أبيات أبي تمام فيه . فقد كان أبوه من ملوك فرغانة فيما وراء النهر ، وكانوا مجوسا يعبدون النار . وفي ذلك يقول أبو تمام :

صَلَّى لَهَا حَيَا وَكَانَ وَقُودَهَا مَيْتَا وَيَدْخُلُهَا مَعَ الْفُجَّارِ

وأغلب الأمر أنه من الفرس ، وليس من الأتراك كما ظنه بعضهم ، فإن أفشين كلمة فارسية معناها الكريم ، وأسم أبيه كاووس : وهي كلمة فارسية معناها الكريم ، والثابت ، والدائم ، والقاهر ، والفتح وغيرها . وهي أسم ملك من ملوك الفرس القدماء . أما أنهم من أشرو سنة فهي من الأقاليم التي يلتقي فيها نفوذ الفرس بالترك ، وكانت من الأماكن التي تطأها أقدام المغيرين من كلتا الأمتين ، لذا أغارت أحدهما على الأخرى ، فلا غرابة أن يكون فيها حاكم فارسي . أما الأفشين نفسه فكان مسلما ، وظل على هذا عند الناس جميعا حتى آتاهم في دينه سنة ٢٢٥ ، وفي أمانته الدولة ، وبأنه حمل مازيار حاكم طبرستان على خلع المعتصم والثورة به . وقد أخذ مازيار هذا ، ويقال إنه أقر بذلك على الأفشين ، ثم عاد فأنكره . ويهتمونه أيضا بتحرير خال ولده منكجور الفرغاني ، وكان بأذربيجان على الخلع ، ففعل ” وقتل جماعة من أعوان السلطان . فقال المعتصم للأفشين : أحضر منكجور . فوجه الأفشين إليه بأبي الساج المعروف بدبوداد في جيش عظيم . ثم بلغ المعتصم أن منكجور إنما خلع بأمر الأفشين ، وأنه إنما وجه إليه بأبي الساج مددا . فوجه محمد بن حماد على البريد ، ووجه بقا التركي فحارب منكجور ، فلما صدقه القتال ضرع منكجور إلى طلب الأمان ، وقدم به إلى سر من رأى وقد حبس الأفشين ، وكان حبسه في سنة ٢٢٦ “ . أما ابن الأثير فيجعل حبس الأفشين سنة ٢٢٥ ، ويقول ” إنه جمع بينه وبين مازيار في السجن لما أتى به إلى سر من رأى ، في هذه السنة . وكان الأفشين قد حبس قبل ذلك بيوم ، فآقر مازيار أن الأفشين كان يكاتبه ، ويحسن له الخلاف والمعصية “ . ولكن اليعقوبي يقول : ” إنه لم يقر بشيء “ .

ويقول ابن الأثير : ” وضرب مازيار أربعمائة وخمسين سوطا ، وطلب ماء للشرب فسقى ، فمات “ .

وقد حاكت الأفشين هيئة مكنونة من محمد بن عبد الملك الزيات ، وابن أبي دؤاد ، وإسحق ابن إبراهيم المعصبي ، وشهدت عليه جماعة أخرى . وتفصيل هذه المحاكمة مذكور في ابن الأثير . و انتهى الأمر برده إلى حبسه . وكانت وجدت عنده أصنام من أصنام أهل أشرو سنة بلده ، وكتاب مذهب من كتب المجوس ، وآتهم بأنه لم يختن .



وكتب التاريخ مملوءة بالمتناقضات عن حادث الأفشين ، تهمة وبراءة ، بحيث يُطلُّ الشك كثيرا من تاريخه . وإن الكتاب الواحد ليتضارب مع نفسه ، فينقل ما يفيد البراءة في مكان ، وما يفيد التهمة في آخر . ولقد لاحظ ابن الأثير ذلك على نفسه ، فعزاه الى كثرة الناقلين . وعلى كل حال ، فقد مات الأفشين سنة ٢٢٦ في سجنه ، فأخذ وصلب على باب العامة ثم أحرق . فقال أبو تمام في ذلك قصيدته :

الحقُّ أبلجُ والسبوفُ عوارِ	فحذارِ من أسدِ العرينِ حذارِ
ملكٌ غدا جارُ الخلافةِ منكم	والله قد أوصى بحفظِ الجارِ
ياربِّ فتنةِ أمةٍ قد بزها	جبارُها في طاعةِ الجبارِ
جالتُ بخيذرِ جولةِ المِقدارِ	فأحلهُ الطغيانُ دارَ بوارِ

ومنها :

صادى أمير المؤمنين بزبرج	في طيه حمةُ الشجاع الضارى
مكراً بنى ركنيه إلا أنه	وطد الأساس على شفير هارِ

ويقول في وصف احتراقه :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه	حتى أصطلى سر الزناد الوارى
ناراً يساور جسمه من حرها	لهبٌ كما عصفت شقٌّ إزارِ
طارَتْ لها شعل يهدم لفحها	أركانهُ هذما بغير غبارِ
فصلن منه كل تجمع مفصل	وفعلن فاقرةً بكل فقارِ
لله من نارٍ رأيت وقودها	ضاق الفضاء به على النظارِ
مشبوبة رفعت لأعظم مشرك	ما كان يرفع ضوءها للسايرِ
صلى لها حياً وكان وقودها	ميتاً ويدخلها مع الفجارِ

ويقول منها في ذكر صلب بابك وماز يار ، وكان جسماهما لا يزالان مصلوبين :

ولقد شفى الأحشاء من برحائها	أن صار بابك جار ماز يارِ
ثانيه في كيد السماء ولم يكن	لأثنين ثانٍ إذ هما في الغارِ

ثم يقول مشيراً إلى ياطس ، خال ملك الروم ، الذى أسره المعتصم فى عمورية ، وكان مات سنة ٢٢٤ :
 وكأنا آبتدرا ليكما يطويا عن ياطس خبراً من الأخبار
 ثم يختمها بأبيات يوصى فيها الخليفة بأبنه الواثق ، ويحثه فيها على جعله ولى عهده :
 فأشدُّ بهارونَ الخلافة إنه سكنَ لوَحشتها ودارُ قسارِ
 الأبيات

(ج) فى كُور الفرات مع مالك بن طُوق : لم يقيم أبو تمام فى سُرٍّ رأى طويلاً ،
 فوَحَلَ إلى كور الفرات فى الجزيرة ، يمدح مالك بن طوق ، ويذكر خلافاً كان بينه وبين قومه من
 التغلبين . يذكر أبو تمام ذلك الخلاف فى قصائد له طوال ، مليئة بالشعر والتجربة والقصص .
 وهو يتنقل معه فى رحلاته لإخضاع النافرين من أسامة ، وتطول إقامة مالك بأقاليم من ريف
 العراق ، لاسيلاً لأبى تمام الحضرى ، المولع بحياة المدن إلى أحوالها ، فيصرخ به أن يعجل
 الرحيل عن هذه القرى الصغيرة :

يا مالِكَ ابنَ المالِكينَ أرى الذى كنا نؤمُّلُ من إِيّاكَ راناً
 لولا أَعْتادُكَ كُنْتُ فى مَندُوحَةٍ عن بَرَقِيدٍ وأَرْضِ باعِينانَا
 والكَاخِيَّةُ لم تُكُنْ لى مَوطِئنا ومَقارِ اللذاتِ مِن قِيرانَا

ومنها :

أَرْضُ خَلَعْتُ اللّهُوَ خَلَعِي خَاتَمِي فِيهَا وَطَلَعْتُ السُّرُورَ ثَلَاثَا

حتى إذا أخضعهم ، أخذ أبو تمام فى الشفاعة لهم عنده ، فيقول من قصيدة :

ورأيت قومك ، والإساءة منهم ، جَرَحِي بِظَفِيرِ اللَّزْمَانِ وَنابِ
 هم صَبَّروا تلك البروق صواعقا فيهم ، وذلك العفو سَوَطَ عذابِ
 فأَقْلُ أسامةَ جُرمها وأَصْفَحَ لها عنه ، وهَبْ ما كان لِلوهابِ

ويقول من قصيدة له فى مالك يصف بيوت أحبائه :

كانت لنا صنما نحنو عليه ولم نسجد كما سجد الأفشين للصنم

مما يدل على أنه اتصل به بعد حادث الأفشين .

ويظهر أن اختلاف أسامة ومالك هذا ، قد طال وزاد ، حتى اضطرت الخليفة إلى عزل مالك

عن الجزيرة كما يقول جامع الديوان ، فقال أبو تمام يمدحه :

أَرْضُ مُصَرَّدَةٍ وَأُخْرَى تُنَجِّمُ تِلْكَ الَّتِي رُزِقْتَ وَأُخْرَى تُحْرِمُ
وَلِذَا تَأَمَّلْتَ الْبِلَادَ رَأَيْتَهَا تُثْرَى كَمَا تُثْرَى الرِّجَالُ وَتُعْدِمُ

ومنها :

تِلْكَ الْجَزِيرَةُ مُذْ تَحْمِلُ مَالِكُ اصْحَبْتُ وَبَابُ الْغَيْثِ عَنْهَا مَبْهَمُ

ومنها :

مَهْلًا بَنَى غُيْمٌ بِنِ تَغْلِبَ إِنَّكُمْ هَدَفُ الْأَسْنَةِ وَالْقَنَا يَحْطُمُ

ومنها :

فَسَتَدُ كَرُونَ غَدَا صَنِيعَةَ مَالِكٍ إِنْ حُلَّ خَطْبُكَ أَوْ تَدْوِيعُ مَغْرَمِ

مَالِي رَأَيْتُ ثَرَاكُمْ يَسَّ لَهْ مَالِي أَرَى أَطْوَادَكُمْ تَهْتَدُمُ
مَا هَذِهِ الْقُرْبَى الَّتِي لَا تَتَّقِي مَا هَذِهِ الْقُرْبَى الَّتِي لَا تَرَحِمُ
حَسَدُ الْعَشِيرَةِ لِلْعَشِيرَةِ قُرْحَةٌ تَلِدَتْ وَسَائِلَهَا وَجُرْحُ أَقْدَمِ
تَلَكُمْ قَرِيْشٌ لَمْ تَكُنْ أَرَاؤَهَا تَهْفُو وَلَا أَحْلَامُهُمْ تَتَّقِسُ
حَتَّى إِذَا بَعَثَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ فِيهِمْ غَدَتِ شَحَنَاؤُهُمْ نَتَضَرَّمُ

ومنها البيت المشهور :

فَقَسَا لِيَزْدَجِرُوا وَمَنْ يَكُ حَازِمًا فَلْيَقْسُ أَحْيَانًا عَلَى مَنْ يَرَحِمُ

(د) في سائر أ : ويظهر أن أبا تمام ورد عليه وهو هنالك نعي المعتصم ، فأنحدر الى سر من رأى لينهى الخليفة الجديد بالخلافة ، وليعزيه في وفاة أبيه . ولقد كانت له يد سابقة عنده ، وذلك منذ كان يتوسط له عند أبيه ليولي الأمر من بعده ، كما سبق حديثي عن ذلك .

مات المعتصم في يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة ٢٢٧ ، وولى ابنه الواثق يوم مات أبوه . فقال أبو تمام قصيدته :

مَا لِلْدُمُوعِ تَرُومُ كُلَّ مَرَامٍ وَالْخَفْنُ نَاكِلَ هَجْعَةٍ وَمَنَامٍ
يَا تُرْبَةَ الْمُعْصُومِ تُرْبُكَ مُودَعٌ مَاءَ الْحَيَاةِ وَقَاتِلَ الْإِعْدَامِ

ومنها يجمع بين التهئية والتعزية :

مَا دَامَ هَارُونُ الْخَلِيفَةُ فَالْهَدَى فِي غِبْطَةٍ مُوصُولَةٍ بِدَوَامِ
إِنَّا رَحَلْنَا وَانْقَيْنَ بَوَائِقِي بِاللَّهِ شَمْسٌ صُحِّي وَبَدْرٌ تَمَامِ

لله أئى حياة أنبعثت لنا يوم الخميس وبعده أئى حمام
تلك الرزية لا رزية مثلها والقسم ليس كسائر الأقسام

(هـ) فى دمشق مع أبى المغيث : فى هذه النسبة اندلعت نار الثورة فى دمشق ، وكان على

ولايتها أبو المغيث موسى بن إبراهيم الرافقى ، ممدوح أبى تمام الذى سبق حديثى عنه .

يقول صاحب النجوم الزاهرة فى حوادث سنة ٢٢٧ : ”وفىها بعث المعتصم على دمشق الأمير
أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقى ، فخرجت عليه طائفة من قيس ، لكونه أخذ منهم خمسة عشر
رجلا فصلبهم . فجهز إليهم أبو المغيث جيشا ، فهزموه وزحفوا على دمشق ، فتحصن بها أبو المغيث ،
ووقع حصار شديد ، ومات المعتصم والأمر على ذلك . فاستمر فى الحصار إلى أن كتب الواثق
إلى رجاء الحضارى (قائد من قواده كان يخضع ثورة رجل آخر فى فلسطين اسمه المبرقع) أن يتوجه
إلى دمشق مددا لأبى المغيث . فقدم دمشق وحارب القيسية حتى هزمهم ، وقتل منهم ألفا وخمسمائة
وقتل من الأجناد ثلاثمائة “ .

سمع أبو تمام بهذه الثورة ، وكان فى العراق كما رأينا مع مالك بن طوق أولا ، ثم فى سرمن رأى
ثانيا يرضى الخليفة . فلما فرغ من ذلك ، أخذ يفكر فى الذهاب إلى بلده حيث كان يأمل أن يجد عيشا
أكثر استقرارا ، وأكثر ليئا من عيش الرحلة الدائمة ، التى قضى فيها أيامه منذ نشأ . وكان ذلك
النشاط الهائل الذى غلب على أيامه قد أثر فى ميوله وآماله ، فهو اليوم يطمع فى حياة هادئة . وقد
هداه حسه إلى أن يكون ذلك فى وظيفة أو عمل من أعمال الدولة يقوم به فينال رزقا منتظما يستطيع
أن يعتمد عليه ، فى غير احتياج إلى مدح فلان أو ذم فلان . ويظهر أنه برغم إسرافه كان قد أثرى
شيئا . فان ابن نباته فى كتاب سرح العيون ، يقص علينا قصة مقدمه إلى الشام فى مرة ، يغلب أن
تكون هى هذه المرة ، أو مرة أخرى أتاها بعدها ، يقول ”ثم ترفت حال أبى تمام ، وتمول بالمال
الجزيل حتى عاد إلى بلده ، فضرب خياما وأظهر نعمة وأثا . فخرجت امرأة من بعض أحياء
العرب ومعها أختها يستقيان ، فتأملته زمانا ، ثم التفتت إلى صاحبته وقالت : أتدريين الرجل ؟ قالت :
لا والله . قالت : بلى والله أنا أعرفه . قالت : ومن هو ؟ قالت : إنه والله أقيرع جاسم . فلما سمع
ما قالت النسوة رحل من وقته وساعته وعاد إلى الموصل فما زال بها إلى أن مات رحمة الله تعالى عليه “ .

شد أبو تمام رحاله إلى بلده ، ويظهر من القصة أنه نزل جاسما بعد هدوء الثورة فى دمشق .
وقد عاد هذه المرة إلى الشام وهو أذيع ما يكون اسما ، وأعظم ما كان فى يوم جاها ، مدح ثلاثة خلفاء ،

وأتصل بأعظم رجال الدولة، فلا خوف عليه أن يقف وجهها لوجه أمام الرجل الذي أستثار حقه من قبل، حتى تهدده بالقتل، وكان يفعل لو استطاع أن يصل إليه . وإنه اليوم أولى بأن يخشاه من أن يخيفه . أرسل إليه أبو تمام من بلده جاسم ، وكان موسى في دمشق، هذه القصيدة :

أَقْشِيبَ رَبِّعُهُمْ أَرَاكَ دَرِيسًا	وَقِرَى ضِيُوفِكَ لَوْعَةً وَرَسِيًّا
فَلَنْ حُبِسْتَ عَلَى اللَّيْلِ لَقَدْ آغْتَدَى	دَمْعِي عَلَيْكَ إِلَى الْمَمَاتِ حَيْسًا
حَتَّى كَأَنَّ أُمِّمَ كَانُوا سَكَنًا	بِكَ وَالْعَالِيقَ الْإِلَى وَجَدِيًّا
وَأَرَى رُبُوعَكَ مُوحِشَاتٍ بَعْدَمَا	قَدْ كُنْتَ مَالُوفَ الْمَحَلِّ أَنْيَسًا
وَبَلَاغَةً حَتَّى كَأَنَّ قَطِينَهَا	حَلَفُوا يَمِينًا أَخْلَقَتْكَ غَمُوسًا
رُودٌ أَصَابَتْهَا النَّوَى فِي خُرْدٍ	كَانَتْ بُدُورَ دُجْنَةٍ وَشُمُوسًا
فَكَأَنَّمَا أَهْدَى شَقَائِقَهُ إِلَى	وَجَنَاتِهِنَّ صُحَّى أَبَوْ قَابُوسًا
قَدْ أُوتِيتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَعْمَةً ،	وَدَدًا ، وَحَسَنًا فِي الصَّبَا مَغْمُوسًا
لَوْلَا حَدَاتُهَا وَأَنَّى لَا أَرَى	عَرِشًا هَا لَطَنَتْهَا يَلْقَبُوسًا

مثل من أمثلة الشعر في طوره الأخير عند أبي تمام، حيث يمثل فنه ناضجًا . فيه الفكرة ، وفيه أثر الثقافة الواسعة ، والانتفاع بهذه الثقافة انتفاعا سائعا في كل شيء : في الإبانة عن الفكرة ، وفي استخراج تشابهه . وترى في قصيدته ذلك الذوق المذهب في اختيار الألفاظ، وانتقاء الصور، وبالجملة ففي هذه الأبيات مثل لغاية ما وصل إليه فن أبي تمام في الغزل . ذلك الفن الذي لا يأتي به عفوا، وإنما يأتي به متعمدا له، قاصدا إليه، مهذبا، مثقفا في غير جفاء ولا جفاف ماء .

ومنها بيت يكشف عن سخريه معللة من أبي تمام بالنجم، يضاف إلى أبياته التي قالها من قصيدته في فتح عمورية :

مَا فِي النُّجُومِ سِوَى نَاعِلَةٍ بَاطِلٍ قَدُمْتُ وَأَسَّسْتُ إِفْكُهَا تَأْسِيسًا

ثم يأخذ في ذكر الثورة التي كانت بدمشق فيقول :

فَتَنَ جُلُوتَ ظَلَامَهَا مِنْ بَعْدِ مَا	مَدُّوا عُيُونَنَا نَحْوَهَا وَرُؤُوسًا
حَرْبٌ يَكُونُ الْجَيْشُ بَعْضُ صَبُوحِهَا	وَيَكُونُ فَضْلُ غَبُوقِهَا الْكَرْدُوسًا
غُرْمُ أَمْرِي مِنْ رُوحِهِ فِيهَا إِذَا	ذُو السَّلْمِ أَغْرِمَ مَطْعَمًا وَلَبُوسًا
كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ إِنَّمَا تَفَقَاتِهِمْ	مَالٌ وَقُشُومٌ يَنْفَقُونَ نَفُوسًا

سار ابن إبراهيم موسى سيرة سَكَنَ الزمانُ لها وكان شَمُوسا
فاقر واسطة الشام وأنشرت كَفَاهُ جودا لم يَزَلْ مَرْمُوسا
كانت مدينة عسقلان عروسها فغدت بسيرته دمشق عروسا
من بعد ما صارت هنيئة صرمة والبذرة النجلاء صارت كيسا^(١)
فكأنهم بالعجل ضلوا حقة وكان موسى إذ أتاهم موسى

ومنها يطلب الوظيفة :

أعطِ الرياسة من يدك فلم تزل من قبل أن تدعى الرئيس رئيسا^(٢)

ثم يلقي عليه درسا طيبا في معاملة الرعية يستطيع الإنسان أن يرى فيه فرق ما بين منزلة أبي تمام الآن، ومنزلته أيام كان يمدحه أول مرة :

أستق الرعية من بشاشتك التي لو أنها ماء لكان مَسُوسا
إن الطلاقة والندى خير لهم من عَفَّةٍ جَمَسَتْ عليك جُمُوسا
لو أن أسباب العفاف بلا تُقَى نفعت لقد نفعت إذن إبليس

ولثاني مرة ، نجد أبا تمام يشور على الظلم ثورته الهادئة . ولقد رأينا الأولى في قصيدته للعتصم عند رجعه من عمورية لما قبض على أبناء المأمون ، وسجنهم بسبب خلع أخيه العباس له . وقد رأينا من قبل ، كيف أن أبا المغيث صلب خمسة عشر رجلا من قيس . فابو تمام يؤنبه في شيء من المداراة، أملا أن ينال منه العمل الذي يبغيه . وفي آخرها يقول له البيت الذي يرى أنه أرسل إليه بالقصيدة إرسالا :

إنّا بعثنا الشعر نحوك مفردا فإذا أذنت لنا بعثنا العيسا

ولكن أبا المغيث لم يكن نسي ما كان من أبي تمام منذ نيف وعشرين سنة ، ويظهر أنه صرح بذلك فقال : ” أعطيه ما يطلب وقد هجاني ؟ ” . وبلغ ذلك أبا تمام فرحل إليه بقصيدة أخرى ينكر فيها أنه هجاه . يقول منها :

(١) الهنيئة : اسم لثانة من الإبل ؛ أو لما فوقها ودونها أو لثانيتين . والصرمة : القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين ، أو ما بين العشرة إلى الأربعين . وغير ذلك . والبذرة : كيس فيه سبعة آلاف دينار .
(٢) لهذا البيت وجه آخر ، فقد يؤول على أنه : أعط رياستك للناس ، حقها من نعمتك ومن عدلك . وهذا على كل حال لا يؤثر في تاريخ القصيدة لعلانها التاريخية بالثورة التي كانت في دمشق سنة ٢٢٧ . كما أن النص يمكن أن يفهم على الوجه الذي ذكرت أولا ، بقويه ما كان من طلب أبي تمام الوظيفة في آخر أيامه .

أَتَانِي مَعَ الرِّكَانِ ظَنُّ ظَنَّتِهِ
لَقَدْ نَكَبَ الْغَدْرُ الْوَفَاءَ بِسَاحَتِي
وَهَتَّكَتُ بِالْقَوْلِ الْخَنَا حَرَمَةَ الْعَمَلِ
نَسِيتُ إِذْنَكُمْ مِنْ يَدٍ لَكُمْ شَاكِلَتْ
وَمِنْ زَمَنِ الْبَسْتَنِيهِ كَأَنَّهُ
وَأَنْتَ أَحْكَمْتَ الَّذِي بَيْنَ فِكْرَتِي
وَأَصْلَتَ شِعْرِي فَأَعْتَلَى رَوْنَقُ الضَّحَى
فَكَيْفَ وَمَا أَخْلَلْتُ بِعَدِّكَ بِالْحِجَا
أُسْرِبِلْ هُجْرَ الْقَوْلِ مِنْ لَوْ هَجَوْتُهُ
كَرِيمٌ مَتَى أَمْدَحُهُ أَمْدَحُهُ وَالْوَرَى
وَلَوْ لَمْ يَزْعُمِي عَنْكَ لِلْحِلْمِ وَازْعُ
أَبِي ذَاكَ أَتَى لَسْتُ أَعْرِفُ دَائِمًا
وَإِنِّي رَأَيْتُ الْوَشْمَ فِي خَلْقِ الْفَتَى
أَرَدَ يَدِي عَنْ عَرِضٍ حُرٍّ وَمَنْطِقِي

لَفَفْتُ لَهُ رَأْسِي حَبَاءً مِنَ الْمَجِيدِ
إِذْنًا، وَسَرَحْتُ الدِّمَّ فِي مَسْرَجِ الْحَمِيدِ
وَأَسْلَكْتُ حُرَّ الشَّعْرِ فِي مَسْلَكِ الْعَبِيدِ
يَدِ الْقَرِيبِ أَعَدْتُ مَسْتَهَامًا عَلَى الْبَعِيدِ
إِذَا ذُكِرَتْ أَيَّامُهُ زَمَنُ الْوَرْدِ
وَبَيْنَ اللَّيَالِي مِنْ ذِمَائِهِ وَمِنْ عَهْدِ
وَلَوْلَاكَ لَمْ يَظْهَرِ زَمَانَا مِنَ الْغَمِيدِ
وَأَنْتَ فَلَمْ تُخْلِلْ بِمَكْرُمَةٍ بَعْدِي
إِذْنًا لَهْجَانِي عَنْهُ مَعْرُوفُهُ عِنْدِي
مَعِي ، وَمَتَى مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَحْدِي
لَأَعْدَيْتَنِي بِالْحِلْمِ إِنَّ الْعُلَى تُعْدِي
عَلَى سُودَدٍ حَتَّى يَدُومَ عَلَى الْعَهْدِ
هُوَ الْوَشْمُ لَا مَا كَانَ فِي الشَّعْرِ وَالْجِلْدِ
وَأَمْلَأُهَا مِنْ لِبْدَةِ الْأَسَدِ الْوَرْدِ

وكأنه لاحظ أنه أطال الاعتذار ، في كثير من الكذب ، فيختم القصيدة بشيء من اعتراف النادم الذي يعمل في نفسه نجمل :

فَإِنْ يَكُ جُرْمٌ عَزَّ أَوْ أَنْتَ هَفْوَةٌ عَلَى خَطَايَا مَنِي فَعُذْرِي عَلَى عَمْدٍ

ولقد يُنكر على أبي تمام هذا الكذب في الاعتذار ، إلا أن الإنسان يجد مخففا في هذا البيت الأخير ، كما يجد مخففا آخر في حياة أبي تمام أواخر أيامه ؛ فهي تكاد تخلو من الهجاء إلا قليلا جدا . ويظهر أن نفس أبي تمام لم تكن تستسيغه ، أو تقبل عليه إلا قسرا . ففي هذا الاعتذار إلى أبي المغيث عن هجائه إياه في شبابه ، معنى من نفور أبي تمام مما كان ركبته ، ولذلك كان شديد القسوة على نفسه في الاعتذار . وكأنني به كان يظن أن الزمان قد آتبع هذا الهجاء إلى غير رجعة ، ولكن التاريخ كان أوعى منه قلبا . ومنها يذكر رحيله إليه :

سَرَيْنَ بَنَاهُ رَهْوًا وَوَحْدًا وَإِنَّمَا قَوَاصِدَ بِالسَّيْرِ الْحَثِيثِ إِلَى أَبِي الْـ

بَيْتٍ وَيُمْسِي النِّجْمُ فِي ذِمَّةِ الْوَحْدِ
حَفِيثٍ فَمَا تَنْفَكُ تُرْقِلُ أَوْ تَحْدِي

إليك نغرنا ما بَنَتْ في ظهورها ظهورُ الثرى الربيعي من فَدَنٍ نَهْد
سرتُ تحمل العُتْبَى إلى العُتْبِ والرضا إلى السعْطِ والعدْر المُبِينِ إلى الحقد

ولكن هذا الحقد الذي كان يعرفه أبو تمام ، لم يذهب هذا الاعتذار ، فلم ينل تلك الرياسة التي كان يبغي ، ولم يهنا له المقام بوطنه كما كان يرجو ، فشَدَّ رحاله ثانية إلى العراق ، عسى أن يجد عند ذوى الشأن فيها ما لم يجده عن أبي المغيث .

(و) في العراق :

تأثره بالمنافسة بين آبن أبي دواد وآبن الزيات :

عاد أبو تمام إلى العراق ، وأغلب ما كان ذلك آخر سنة ٢٢٧ ، أو أول سنة ٢٢٨ ، فقصي فيها فترة اتصل فيها بكل مشاهير ذلك الزمن ، مشتبكا بهم اشتباكا لا يمكن الإنسان معه أن يميز في يقين بين دقائقه وبكائره ، ما تقدم منها وما تأخر . ولكنه في جميعها كانت تعمل في رأسه فكرة العمل المستقر ، في ولاية من ولايات الدولة ، لينال أجرا ثابتا ، وليفيد ثروة كان يرى كل رجال الدولة يفيدونها من عملهم .

فقرأه يمدح إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب ، وقد تحدثت عن مدائحه فيه سابقا ، أيام إخضاعه المحمّرة بالجلال سنة ٢١٨ . يمدحه هذه المرة ، وهو على شرطة الواثق ، كما كان على شرطة المعتصم من قبل ، بقصيدة مطلعها :

قُلْ لِلْأَمِيرِ الَّذِي قَدْ نَالَ مَا طَلِبَا وَرَدَّ مِنْ سَالِفِ الْمَعْرُوفِ مَا ذَهَبَا
فيقول له منها :

وَنَادَبُ رَفَعَ قَدْرُ كُنْتُ أَمَلُهُ لَدَيْكَ ، لَا فَضْلَةَ أَبْنَى وَلَا ذَهَبَا
أَدْعُوكَ دَعْوَةَ مَظْلُومٍ وَسَيْلَتُهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ بِي رَحِيمًا فَارْحَمْ الْأَدْبَا

ولكن هذه الدعوة لا تجد استجابة من إسحاق ، فينتجه أبو تمام إلى آبن الزيات ، وهما صاحبان قديمان بقصيدة مطلعها :

لَهَانَ عَلَيْنَا أَنْ نَقُولَ وَتَفْعَلَا وَنَذْكُرَ بَعْضَ الْعُضَلِ مِنْكَ فَتَفْضَلَا
ومنها يذكر آبن الزيات :

هَزَزْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! مُحَمَّدًا فَكَانَ رُدَيْنِيًّا وَأَبْيَضَ مُنْصَلَا

وهو فيها شديد الضيق، يهتد بالرحيل إلى أهله في الشام، ويذكر أنه ما كاد يراهم حتى فارقهم:

ساقطع أمطاء المطايا برحلة
إلى الزجم الدنيا التي قد أجفها
قبيل وأهل لم ألاق مشوقهم
كأنهم كانوا الخفة وقفني
إلى الوطن الغربي هجرا وموصلا
عقوقي، عسى أسبابها أن تبلا
لوشك النوى إلا فوفا كلاً ولا
معارف لي، أو منزلي كان منزلاً

ومنها:

وأصرف وجهي عن بلاد غدا بها
وجد بها قوم سواي فصادفوا
كلاب أغارت في فريسة ضيغم
وإن صريح الحزم والراي لأمرى
لساني معقولا وقلبي مقفلا
بها الصنع أعشى والزمان مقفلا
طروفا، وهام أطعمت صيد أجدا
إذا بلغته الشمس أن يتحولاً

ثم ينقلب إلى غايته التي يلح في طلبها، والتي من أجلها غضب غضبته هذه، فيقول:

فمررتني بأمر أحوذني فإنني
رأيت العدى أثروا وأصبحت مرملاً

ويظهر أن ابن الزيات، كان يرى أن أبا تمام الشاعر خير له أن يبقى شاعراً، فكان يساعده بوسائل أخرى كأن يقدمه إلى الخليفة.

يقول الصولي^(١): "وجدت بخط أحمد بن إسماعيل بن الحصيد، أن محمد بن عبد الملك أوصل

إلى الواثق قصيدة لأبي تمام يمدحه بها، أولها:

وأي المنازل إنها لشجون
وعلى العجومة إنها لتبين

فقرئت عليه فلما جاء إلى قوله:

جاءتك من نظم اللسان قلادة
حذيت حذاء الحضرمية أرهفت
إنسية وحشية ككثرت بها
أما المعاني فهي أبكار إذا
أخذاكها صنع الضمير يمدد
ويبسى، بالإحسان ظنا لا كمن
سيمطان فيها اللؤلؤ المكنون
وأجابها التخصير والتلسين
حركات أهل الأرض وهي سكون
نصت ولكن القوافي عوت
جفر إذا نصب الكلام معين
هو بأبنه وبشعره مفتون

فقال : أدفع إليه مائتي دينار . فقال محمد : إنه قوى الأمل ، واسع الشكر . قال : فأضعفها له . وقد روينا من غير هذه الجهة أنه أمر له بمائة ألف درهم .

وكان أبو تمام وثيق الصلة بأبن الزيات ، صديقه أكثر منه شاعره . وكان ابن أبي دواد لا يحب ابن الزيات ، ويظهر أن هذه العداوة بين ابن أبي دواد وصديقه ابن الزيات ، كانت تطلق في القاضي لسانه أحيانا حتى غضب . وإن كان الصولي يرجع الحصومة بينه وبين ابن أبي دواد إلى نحر أبي تمام بنسبه إلى اليمن ، حتى فضلهم على مضر ، وإياد التي منها ابن أبي دواد عدنانية . إلا أني ألمح هذا السبب الذي أنسب إليه غضب ابن أبي دواد على أبي تمام ، في تعريض بالقاضي خفي في شعره ، حين كان يمدح ابن الزيات أو يعتذر إليه . ويقول الصولي إنه أمر بحجبه عنه ، فراح أبو تمام يعتذر إليه بشعر كثير . فقال قصيدته :

سَقَى عَهْدَ الْحِمَى سَيْلُ الْعِهَادِ وَرَوْضَ جَاضِرٍ مِنْهُ وَبَادِ

ومنها يعتذر إليه :

وما سافرتُ في الآفاق إلَّا وَمِنْ جَدِّوْكَ رَاحَتِي وَزَادِي
مُقِيمُ الظَّنِّ عِنْدَكَ وَالْأَمَانِي وَأَنْ قَلَقْتُ رِكَابِي فِي الْبِلَادِ
مَعَادُ الْبَعثِ مَعْرُوفٌ وَلَكِنْ نَدَى كَفَيْكَ فِي الدُّنْيَا مَعَادِي
أَتَانِي عَابِرُ الْأَنْبَاءِ تَسْرِي عَقَارُهُ بِدَاهِيَةِ نَسَادِ^(١)
نَنَا خَبْرٌ كَانَ الْقَلْبُ أَمْسِي يُجَرِّيه عَلَى شَوْكِ الْقَتَادِ
كَأَنَّ الشَّمْسَ جَلَّهَا كَسُوفٌ أَوْ أَسْتَرَتْ بِرَجُلٍ مِنْ جَرَادِ
بِأَنِّي نَلْتُ مِنْ مُضَرٍّ وَخَبَّتْ إِلَيْكَ شَكِيَّتِي خَبَبَ الْجَوَادِ
وَمَا رُبَّ قَطِيعَةٍ لِي بِرَبْعٍ وَلَا نَادِي الْأَذَى مِنْ بِنَادِ
وَأَيْنَ يَجُورُ عَنْ قَصْدٍ لِسَانِي وَقَلْبِي رَاحٌ بِرِضَاكَ غَادِ
وَمَّا كَانَتْ الْحِكْمَاءُ قَالَتْ : لِسَانُ الْمَرْءِ مِنْ خَدَمِ الْفَوَادِ

ثم يمضي بعدها في الاعتذار طويلا ، مستندا إلى أن ذلك ليس يأتي إلا من لئيم ، وهو أولى بأن يمتنع أمام نفسه أن يوصف باللؤم . ثم يأخذ بعد ذلك في نصحه بالتثبت من هذه الوشائات ، ضاربا الأمثال بما حدث في التاريخ من بلايا ومصائب بسبب الوشاية :

(١) النَّادِ : الداهية ، كأنه يقول : داهية دعيا .

تَبَّثْتُ . إِنَّ قَوْلَا كَانَ زُورًا إِلَى النِّعْمَانِ قَبْلَكَ عَنْ زِيَادٍ
وَأَزَتْ بَيْنَ حَيٍّ بَنِي جُلَاحٍ سَنَا حَرْبٍ وَبَيْنَ بَنِي مَصَادٍ^(١)

وهكذا يَمْضِي فِي قَصِيدَةٍ هِيَ مِنْ أَجَلِ قَصَائِدِهِ؛ وَلَكِنْ ابْنُ أَبِي دُوَادٍ لَمْ يَزَلْ غَضِبَهُ . فَعَمِلَ قَصِيدَةً أُخْرَى يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ فِيهَا ، وَيَسْتَشْفِعُ بِخَالِدِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ مَرْزُوقِ الشَّيْبَانِيِّ ، وَهِيَ :

أَرَأَيْتَ أَيُّ سَوَالِفٍ وَخُدُودٍ عَنَّتْ لَنَا بَيْنَ النَّوَى فَزُرُودٍ

وهي جارية مجرى الأولى في شاعريتها وخصبها . ومنها يذكر شفاعة خالد :

فَأَسْمَعُ مَقَالَةَ زَائِرٍ لَمْ تَشْتَبِهِ أَرَاؤُهُ عِنْدَ اشْتِبَاهِ الْيَسِيدِ
يَسْتَأْمُ بَعْضَ الْقَوْلِ مِنْكَ بِفَعْلِهِ كَلَّأَ ، وَعَفَوَ رِضَاكَ بِالْمُجْهَدِ
أَسْرَى طَرِيدًا لِلْحَيَاءِ مِنَ الْقِي زَعَمُوا ، وَلَيْسَ لِرَهْبَةٍ بِطَرِيدِ
كَنْتُ الرِّبْعَ أَمَامَهُ ، وَوَرَاءَهُ قَرُّ الْقَبَائِلِ خَالِدُ بْنُ يَزِيدِ

وهذه القصيدة لم تلق من القبول عند ابن أبي دواد أكثر مما لقيت سابقتها ، فكتب إليه

أبو تمام مقطوعة أخرى :

أَأَحْمَدُ إِنَّ الْحَاسِدِينَ حُشُودٌ وَإِنْ مَصَابِ الْمُزْنِ حَيْثُ تَرِيدُ

ولقي خالد أخيرا في شفاعته النجاح الذي لم تجده قصائده أبي تمام ، فرضى ابن أبي دواد عن

أبي تمام فأخذ يمدحه بعد ذلك بقصائد كثيرة منها :

سَعِدْتُ غَرِبَةَ النَّوَى بِسَعَادٍ فَهِيَ طَوْعُ الْإِتِّهَامِ وَالْإِنْجَادِ

يقول فيها يذكر هذه الوشاية :

بَعْدَ مَا أَصْلَبَتِ الْوُشَاةُ سَيُوفًا قَطَعْتُ فِي وَهْيٍ غَيْرِ حِدَادٍ
مِنْ أَحَادِيثٍ حِينَ دُوخَتْهَا بِالْأُتْرَ أَيْ كَانَتْ ضَعِيفَةً الْأَسْنَادِ
فَفَتَنَى عَنْكَ زُخْرَفَ الْقَوْلِ سَمْعُ لَمْ يَكُنْ فُرْصَةً لَغَيْرِ السَّدَادِ
ضَرَبَ الْحُلْمُ وَالْوَقَارُ عَلَيْهِ دُونَ عُورِ الْكَلَامِ بِالْأَسْدَادِ

ومما قاله أيضا بعد هذه الخوصومة قصيدة مطلعها :

أَهْلُوكَ أَمْسُوا شَاخِصًا وَمَقْوُضًا وَمَرْمًا يَصِفُ النَّوَى وَمَغْرُضًا^(٢)

(١) جلاح ومصاد : حبان من كلب اليمن ، فرقت أقوال الناس بينهما فتحاربا طويلا .

(٢) غرض النافذة : شدتها بالفرصة .

ومنها البيت :

لو كان أبغض قلبه فيما مضى أحد لَكُنْتُ إذن لقلبي مُبغضا
وهو يذكر بقول المتنبي :

حببتك قلبي قبل حبك من نأى وقد كان غدارا فكُنْ أنت واقيا

ومنها بيت يرى كيف كان أبو تمام يستخرج شعره وتشايبه من صميم الحياة :

عِنْدِي مِنَ الْأَيَّامِ مَا لَوْ أَنَّهُ أَضْحَى بِشَارِبِ مُرْقِدٍ مَا عَمَّضَا

وبيت آخر يهتك الحجب عن لون من ألوان الرياء النفس ، التي لازمت الإنسان زمنا في فهم معنى

الصبر والتجلد :

مَا عَوْضَ الصَّبْرَ أَمْرُؤٌ إِلَّا رَأَى مَا فَاتَهُ دُونَ الَّذِي قَدْ عَوْضَا

وأبيات أخرتين عن سبب هم أبي تمام بغضب ابن أبي دؤاد وهي :

لَمَّا أَنْتَضَيْتُكَ لِلْخُطُوبِ كُفَيْتُهَا وَالسِّيفَ لَا يَكْفِيكَ حَتَّى يُنْتَضَى
مَا زِلْتُ أَرْقُبُ تَحْتَ أَفْيَاءِ الْمَنَى يَوْمَا بَوَّجِهِ مِثْلَ وَجْهِكَ أَبْيَضَا
كَمْ مَحْضَرٍ لَكَ مُرْتَضَى لَمْ تَذْخَرْ مَحْمُودُهُ عِنْدَ الْإِمَامِ الْمُرْتَضَى
لَوْلَاكَ عَزٌّ لِقَاؤُهُ فِيمَا بَقِيَ أَضْعَافَ مَا قَدْ عَزَّنِي فِيمَا مَضَى

”وبقي“ في البيت ، بفتح القاف أتباعا للغة طيء .



يمكن بعد هذا أن نضع قصائد أبي تمام في ابن أبي دؤاد حول زمن الحصومة هذه ، فهي تصلح

لأن تكون قيلت قبل أن تشب الحصومة بينه وبين أبي تمام ، أو بعدها . وأهم الباقي اثنتان : إحداهما

أشبه بأن تكون قيلت بعد الحصومة إذ يقول فيها :

إِنْ خَيْرًا مِمَّا رَأَيْتَ مِنَ الصَّفَدِ حِجَّ عَنِ النَّائِبَاتِ وَالْإِغْمَاضِ
غَرِبَةٌ تَقْتَدِي بِغَرِبَةِ قَيْسٍ بِهِ بِنْ زَهِيرٍ وَالْحَارِثِ بِنْ مُضَاضِ

وثانيتها :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ تُرَوِّى الظَّمَاءُ الْحَوَائِمَ وَأَنْ يَنْظِمَ الشَّمْلَ الْمَبْدَدَ نَاطِمُ

وفيها ذكر لرحلته إلى المدوح ، وأغلب أن تكون قيلت قبل الحصومة ، حين رجع أبو تمام من

الشام لآخر مرة .



ويظهر أن الشحنة دبت بينه وبين خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني في ذلك الحين . فقال قصيدة يمدح فيها ابن الزيات — ولم يكن قد انقطع عن صحبته ، بسبب حادث ابن أبي دؤاد — ويعرض بخالد بن يزيد الشيباني . ومطلعها :

خَلَى سَبِيلَ تَهَامِي وَنُجُودِي مِمَّا يَغْرُكَ ، طَارِفِي وَتَلِيدِي
وفيها ما يدل على أنها قيلت في ابن الزيات أيام الوراق ، قوله :

وَنَوَالِ ذِي الشَّرَفَيْنِ عِنْدَ خَلِيفَةٍ بَاقٍ وَمَاضٍ ، قَبْلَ ذَلِكَ ، حَمِيدٍ
وَقِيلَتْ تِلْكَ عَلَى الْوَفَاءِ فَأَصْبَحَتْ هِذِي تَشِيرُ إِلَيْكَ بِالْإِفْلِيدِ
فَنَصَحَتْ لِلْمَلِكَيْنِ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَصَحَ الْإِمَامَ قَرَابَةَ التَّوْحِيدِ

وإبن الزيات إنما خدم المعتصم ، ثم الوراق من بعده . ومنها يشير إلى خالد :

مَا ضَرَّهَا إِذْ كُنْتَ بَنَاءً بِهَا أَلَّا تَكُونَ لِحَالِدِ بْنِ يَزِيدٍ
وَمُكَاشِحَ يَلُوى بَنَانَهُ كُفِّهِ بَغِيَا ، فَقُلْتَ لَهَا : الْقَضَاءُ نَسِيدِي
أَحْسِدْ عَلَى نِيلِ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَى إِنِّي لَمْ تَكُنْ فِي حَالَةِ الْمَحْسُودِ

اتصاله بالحسن بن وهب : وفي هذه الفترة يتعرف أبو تمام بالحسن بن وهب ويتصادقان . والحسن من كتاب الدولة ذوى الشأن ، فيقول فيه شعرا ، ويتقرب إليه . ويقول لنا ابن خلكان : لأنه جعله على بريد الموصل ، وليس واليا عليها ، وأنه تتبع ذلك وحققه ، ويقول إنه أقام بها أقل من سنتين ثم مات بها .

هل عمل أبو تمام على بريد الموصل : ولا أستطيع أن أمر بهذا التحقيق الذى يقول عنه ابن خلكان ، دون أن أقف عنده وقفة ما .

فأبو تمام من غير شك لم يمُت قبل سنة ٢٣٠ ، لأنه يرثى خالد بن يزيد بن مزيد ، الذى مات في هذه السنة ، كما فى اليعقوبى ، فى إرمينية ، وكان الوراق قد رده عليها . وروايات موت أبي تمام قبل سنة ٢٣٠ ، أو فيها لا تجد سنداً فى أقدم الكتب بين أيدينا : أخبار الصولى والأغاني .

ويروى الصولى لموت أبي تمام روايتين : إحداهما تنتهى إلى من يدعى محمد بن موسى وتقول : إن الحسن بن وهب ، وكان يكتب لمحمد بن عبد الملك الزيات ، عُني بأبي تمام ، فولاه بريد الموصل ، فأقام بها سنة ومات فى جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين ومائتين ، ودفن بالموصل .

والثانية تنتهى إلى محمد بن بكار الموصل ، وهو عدو من أعداء أبي تمام ، الذى يهجوّه كما مضى فى حديثى عنه قبلا . وقد هجاه أيضا لما مات بالموصل . ويقول إنه مات فى المحرم سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

وثالثة وهى تؤيد الأولى تماما عن تمام بن أبي تمام : أن أباه مات سنة ٢٣١ . وإذا قد آتفتت رواية تمام مع رواية محمد بن موسى ، فأولى بنا أن نقدمها . فلو صحّ أن أبا تمام قد ظل سنة ، أو سنة وبعض سنة ، على ولاية بريد الموصل ، فإن ذلك يجعل أول ولايته عليها فى منتصف سنة ٢٣٠ . إن كان وليه سنة ، وفى أواخر سنة ٢٢٩ . إن كان وليه أكثر من سنة .

فإذا وجدنا ابن الأثير يقول فى حوادث سنة ٢٢٩ : ” وفى هذه السنة حبس الوراق الكتاب ، وألزمهم أموالا عظيمة ، وأخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار بعد أن ضربه ، ومن سليمان ابن وهب ، كاتب إيتاخ ، أربعمئة ألف دينار ، ومن الحسن بن وهب ، أربعة عشر ألف دينار ... “ اضطربنا إلى ترجيح أن الحسن بن وهب لم يكن فى يده بعد سنة ٢٢٩ من السلطان ما يستطيع به أن يوظف أبا تمام ، فى عمل من أعمال الدولة . وأنه إن كان فعل ذلك ، فلا بد أن يكون قبل حبسه . وذلك ما يرجّح رواية ابن خلكان فى أن أبا تمام بقى على بريد الموصل أكثر من سنة .

فإذا صحّ أن أبا تمام كان على بريد الموصل منذ سنة ٢٢٩ حتى موته ، فإن وجوده بهذا العمل يرغمه على البقاء طول هذه المدة دون تنقل ليمدح هذا أو ذاك ، لأن عمل صاحب البريد فى تلك الأيام كان معقدا ، وهو أقرب ما يكون إلى عمل مراقب على الوالى من قبل الخليفة . فتركه عمله زمنا طويلا أو قصيرا ، معناه انقطاع الصلة بين عاصمة الدولة وقطره الذى هو فيه ، إلا إذا أتاب عنه غيره ، وهذا عسر لما كان يحيط هذا العمل من أسرار ، قد تكون سياسة الدولة فى حاجة إلى عدم كشفها . فقد كان الوالى أحيانا يخلع الخليفة ، أو يسقط اسمه من الخطبة ، كما فعل طاهر ابن الحسين فى أيام المأمون ، فيكتب صاحب البريد بذلك إلى الخليفة . وكما حدث أيضا فى ردّ خالد بن يزيد بن مزيد عن إرمينية سنة ٢٢٣ ، إذ كتب صاحب بريدها إلى المعتصم يخبره عن سوء استقبال أهلها له ، وخوفهم منه . فلم يكن عمل صاحب البريد العمل السهل الساذج الأمين ، الذى يستطيع صاحبه أن ينام عنه ملء جفونه .

ومع ذلك فإننا نجد تلك القصة التى ذكرتها قبلا نقلا عن كتاب سرح العيون عن رحيل أبي تمام إلى الشام فى ثروة وغنى ، وكيف ضحكت منه المرأة ، وكيف عاد إلى الموصل بعد ذلك فبقى بها

حتى مات . هذه وما ساذكره بعد من تنقل أبي تمام لمدح بعض ممدوحيه يجعل القول بولايته
بريد الموصل محوطا بشيء من الشك ويدفع الى تلقيه بشيء من الحذر .

كما أننا نجد أبا تمام عند خالد بن يزيد بن مزيد ، في إرمينية ، بعد أن رده الوراق إليها
سنة ٢٣٠ ، يمدحه بقصيدة هي مثل من أمثلة نضج أبي تمام الشعرى في أواخر أيامه ، وهي :

مَا لِكُتَيْبِ الْحَمَى إِلَى عَقْدِهِ مَا بَالُ جَرَعَائِهِ إِلَى جَرَدِهِ

يُحَدِّثُ الْإِنْسَانَ فِيهَا تِلْكَ الْأَبْيَاتِ الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ إِزَاءَهَا إِلَّا أَنْ يَحْنِيَ الرَّأْسَ إِجْلَالًا :

يَا فَرَحَةَ الثَّغْرِ بِالْخَلِيفَةِ مِنْ يَزِيدِهِ الْمُرْتَضَى وَمِنْ أَسَدِهِ



مَمْتَلِيءُ الصَّدْرِ وَالْجَوَانِحِ مِنْ رَحْمَةٍ مَمْلُوءِينَ مِنْ حَسَدِهِ

يَأْخُذُ مِنْ رَاحَةِ إِشْفَالٍ وَيَسْتَتِيقُ لَيْسَ الزَّمَانِ مِنْ نَأْدِهِ

فَهُوَ لَوْ أَسْطَاعَ عِنْدَ أَسْعَدِهِ لَحَزَّ عَضْوَاهُ مِنْ يَوْمِهِ لَعَدِهِ

إِذْ مِنْهُمْ مَنْ بَعْدَ سَاعَتِهِ الطَّاقُ عِيَارًا لَهُ عَلَى أَبَدِهِ

أَلْوَى ، كَثِيرُ الْأَسَى عَلَى سُودِّ السَّعِيشِ قَلِيلُ الْأَسَى عَلَى رَغَدِهِ

قَرِيجَةُ الْعَقْلِ مِنْ مَعَاقِلِهِ وَالصَّبْرُ فِي النَّائِبَاتِ مِنْ عُودِهِ

وهو يشير فيها إلى شفاعته له عند ابن أبي دؤاد :

تَاللَّهِ أُنْسِي دِفَاعَهُ الزَّوْرَ مِنْ عَوْرَاءِ ذِي تَيْرِبٍ وَمِنْ فَنَدِهِ

فهى قصيدة يذكر فيها أبو تمام رد خالد الى الثغر في قوله : ” يا فرحة الثغر ... ” البيت . وقد
قالها بعد خصومة ابن أبي دؤاد ، ولم يرد خالد الى الثغر إلا سنة ٢٣٠ كما يذكر اليعقوبى .

أما ما ثبت أنه كان في إرمينية . في تلك الأيام ، فخير حكاة الصولى : أن رجلا رآه في مجلس
خالد ابن يزيد بإرمينية ، فوجده حسن الفكاهة أعجبه جدا . فقال له خالد أما سمعت شعره فينا ؟

مَا لِكُتَيْبِ الْحَمَى إِلَى عَقْدِهِ مَا بَالُ جَرَعَائِهِ إِلَى جَرَدِهِ^(١)

ويغلب أن يكون أبو تمام قصد هذه المرة أيضا إلى أذربيجان لمدح صاحبه القديم ، الذى لم يتخل
عنه يوما ، وهو أبو سعيد محمد بن يوسف الثغرى فيقول فيه قصيدته :

بأنوا، وشوقك لم يُظعن ولم يبين
حتى لقد أعدم الشكلى من الحزن

حنّام دمعك مسفوح على الدّمن
ما زال قلبك يقنى الحزن مجتهدا

فهو فيها يذكر الرحلة إليه :

بالداعرية حسرى فتحة البدن
بالوخذ من عليم حزن ومن شرن
بالنور منهم وجوه نضرة السنن

إليك حاربت يوم الليل منصرفا
قد سهل الحزن منها ما تسنمه
تسرى بركب توشى ثوب ليهم

ثم يقول فيها مشيرا الى الخليفة :

به الخلافة جبل الدين والسنن
قدما، وكنت إليه مصغى الأذن

إن الخليفة هارون الذى وصّات
أفالك أسمع من نالته دعوته

+

وفي هذه السنة يمرض خالد بن يزيد بن يزيد، في إرمينية، ثم يموت، فيقول أبو تمام في رثائه،

ففى العرب أختط ربع الفناء

نعاء إلى كل حى نعاء

ومنها يصفه فى مرضه وكأنما شهده :

عرب الداء حيلته والدواء
أفغصه، وأخلاف الهواء

يقول النطاسي إذ غيبت
نبؤ المقييل به والمبيت

ومنها يخاطب ابنه محمدا، وكان الواصل ولاء إرمينية بعد أبيه، كما فى اليعقوبى :

عزاء ويكسك ثوب البقاء
ولا ريحنا منك بالحرىباء
حيارى ولا أنسد شعب الرجاء
صدور القنا فى آبتغاء الشفاء
ونجم أبيك حديث الضياء
ولا تحمل عاتقه للسواء
مع النجم مرتديا بالعماء
ل أن له منزلا فى السماء

أبا جعفر ليُعرك الزمان
فما مُزناك المرتجى بالجهام
ولا رجعت فيك تلك الظنون
وقد نكس الثغر فأبعث له
فقد مات جدك جد الملوك
ولم تُرض قبضته للحسام
فما زال يقرع تلك العلل
ويصعد حتى لظن الجهو

ثم يتحدث عن سياسته الحرب حديث الخبير المجرب :

وقد جاءنا أن تلك الحروب إذا حُذيتْ فالتوت بالحداءِ
وعاودها جربٌ لم يَزَلْ يُعاود إشعاعُها بالهِناءِ
متحت بسجل لها كالسجال ودلّو إذا أفرغت كالدلّاءِ
ومثل قوَى حبل تلك الدرا ع كانت لزارا لتلك الرّشاءِ
فلا تُخزِ أيامه الصالحاتِ وما قد بنى من جليل البناءِ
وقد علم الله أن لن تُحبَّ شيئاً كحبك حسن الثناءِ

وفيها شيء من روح الأبوّة والعطف، خليق بأبي تمام في سنيه الأخيرة. وكأن ذلك الهدوء الذي يشيع فيها، أشعة الشمس الغاربة صفراء باهتة، ولكنها عميقة المعنى، يتركز في كل شعاع منها معنى النهار، من صبحه الى متناه.

رثى أبو تمام خالدا بغير هذه، ثم آنحدر الى الشام على الأغلب، فأخذ أهله ليقم في الموصل في هدوء كان يأمله منذ زمان طويل. نزل الموصل هاربا من ذكريات أيامه الأولى في الشام، متعبا قد أثر في نفسه طول هذا الصراع مع الدنيا، يبغي أن يستقبل الحياة من جديد بوجه جديد، يختلف عن عبوسها الذي لازمه منذ ولد. ولكن هؤلاء العظماء النفوس، لم تُقسّم لهم الراحة في الدنيا نصيبا، فسلط عليه قدره شاعرا ناشئا، يريد أن يشتهر على حساب اسم أبي تمام الضخم، فأخذ يهجو ويضحك منه، والشيخ لا يجيبه احتقارا وترفعاً، كما كان يقول للناس، وهربا من جلبة الهجاء، وضحيج الحياة كما أشعر أنا. هذا الشاعر هو محمد بن بكار الموصل.

١٧ - موت الشاعر

وفي جمادى الأولى سنة ٢٣١ أسلم هذا الرجل روحه، فبكاه أناس كثيرون. ولكالم نشهد في بكائهم إياه دمعة تقرب من دموعه على من بكاهم غزارة وحرارة. مات كما يموت العظماء جميعا لا تذرف الناس عليهم الدمعة المنبثة من قلب حزين مكوم، ولكن الدمعة التي تعبر عن حس بخسارة شيء عظيم، كان يملاً عليهم حياتهم. تلك الدمعة الذاهلة لأنهار الطود الشاخ، لا الدمعة الآلة الصادرة عن قلب جريح. لم يرث أحد منهم أبا تمام، ولكنهم رثوا شعر أبي تمام؛ لأن شعر أبي تمام كان في نفوسهم أخلد من شخصه. فضؤل الانسان الفاني إلى جانب العقل الخالد.

رثاه ابن الزيات ، وقد يكون بيناه أكثر ما قيل فيه جزعا عليه :

نبأ أتى من أعظم الأنباء لما ألمّ مقلّةُ الأحشاء
قالوا: حبيبٌ قد توى فأجبتهُم ناشدكم لا تجعلوه الطائي

وقيل بل هما لأبي الزبرقان : عبد الله بن الزبرقان الكاتب ، مولى بنى أمية . ورثاه الحسن ابن وهب بقوله :

يُفْعَ القريضُ بنخاتم الشعراءِ وغدير روضتها : حبيب الطائي
ماتا معا فتجاورا في حفرة وكذلك كانا قبل في الأحياء

وقيل : بل هذان البيتان لديك ابن رثاه بهما . ورثاه الحسن بن وهب أيضا بقوله من قصيدة له :

سَقَى بالموصل القبرَ الغريبا سحائبٌ ينتحين له نجيبا
إذا أطلنّه أَطْلَنَ فيه شَعِيبَ المُرْنِ يتبعها شعيبا
ولطَمَنَّ البروقُ به خدودا وشَقَّقَنَّ الرعودُ به جُيُوبا
فإنّ تراب ذاك القبرِ يحوى حبيباً كان يُدعى لي حبيباً

وبيناه الأولان يرثى فيهما الشعر، وأبياته الأخيرة يطلب فيها تقليد مذهب أبي تمام في استعاراته واستعماله لغة طيء في « لَطَمَنَّ البروقُ » و « شَقَّقَنَّ الرعود » ويورّى في حبيب وحبيب . ورثاه غير هؤلاء وشعرهم كهذا .

ودفن بالموصل . يقول البحترى « وبني عليه أبو نهشل بن حميد الطوسي قبة . يقول ابن خلكان ، إنه رآها بالموصل خارج باب الميدان ، على حافة الخندق ، والعامّة تقول هذا قبر تمام الشاعر . وقد قال شاعر متأخر من قصيدة له :

سقى الله دُوحَ العُوطَيْنِ ولا آرتوت من الموصل الجَدباءِ إلّا قبورها

فلما سئل : لم حرم الموصل السقيا ، وخصّ قبورها بها؟ قال لأجل أبي تمام .